

الحياة

م



محمد تيمور

محمود شيمون

إحسان الله ...

وقصص أخرى

مقدم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعة الإبراهيمية ١٩٧٧
المطبعة النموذجية
٦ سكة السناوري للطباعة الحديثة

يوليو ١٩٨٣

يُحَمَّدُ افْتَدَى صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ

١

- صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ .
- اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ ...
- لَقَدْ نَوَيْتُ أَنْ أَطْلُقَ الْمَرْأَةَ ...
- لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ...
- قُلْتُ لَكَ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ .
- أَلْفُ صَلَاةٍ عَلَيْهِ يَا أَخِي .
- لَقَدْ اسْتَخَرْتُ اللَّهَ فِي تَطْلِيقِ الْمَرْأَةِ .
- هَذَا خَرَابُ بَيْوت .
- خَرَابُ بَيْوتِ أَوْعَمِرَانَ بَيْوت ... هَذَا مَا اعْتَزَمْتُهُ
- والسلام
- أَنْسَيْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَيْخُنُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ » ؟
- أَعَرَفْتُ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَا تَنْسَ أَنْ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ :

« لَا يَكْتَلِبُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » ؟
 دار هذا الجوار بين « محمد أفندي » ، والمأذون الشرعيّ ، في
 مكتبته : إذ قد سَدِمَ عليه « محمد أفندي » ، ليتفقّ منه على إجراء
 الطلاق

وجعل المأذون الشرعيّ يسوّى طوايا عمامته ، مطيلاً في
 تسويتها وهو يتنحّج ، معدّاً حنجرته لإلقاء خطبته المتبذّرة ،
 يحاول بها إصلاح ذات البين ، وإبراء نفسه من تبعه هذا المكروه
 قبل أن يغمس قلبه في الدواة ، شروغاً في تدوين وثيقة الطلاق ،
 وذلك تنفيذاً للتعليمات الرسمية المعهودة .

وما عَتَمَ المأذون الشرعيّ أن انبجس لسانه ، يشقّ شقّق
 بالجلل والعبارات ، بحشوة بالنصح للزوج أن يكفّ عن الطلاق ،
 وأن يؤثر الحسنى ، وأن يمسك زوجته بمعروف .
 وكان يتلو هذه الخطبة عن ظهر قلبه ، كما ينشد التليد قصيدة
 من المحفوظات .

فلما بلغ الغاية من خطبته ، أحْدَثَ النظر في وجه زائره ،
 كأنه يقول :

هل بعد هذا مقال لقائل ؟
 ولكن « محمد أفندي » رفعَ طربوشه عن رأسه في ملالة

وَدَسَّجِرَ هُفْبِدَى رَأْسَهُ أَجْرَدَ مَا حَلَا ، إِلَّا مِنْ شَعِيرَاتٍ مَبْشَرَةٌ
كَأَنَّهَا أَعْشَابٌ مَمْسُوحَةٌ فِي صَحْرَاءٍ مَقْفَرَةٍ . وَطَلَّقَ يَمْسُحُ بِمَنْدِيلِهِ
الْمَخْطُوطَ الْكَبِيرَ جَوَانِبَ وَجْهِهِ ، وَهُوَ ذَلِكَ الْوَجْهُ السَّمِينُ ذُو
الْعَيْنَيْنِ الْمَتَوَرَّمَتَيْنِ ، وَالشَّفَتَيْنِ الْغَلِيظَتَيْنِ ، وَالْأَنْفِ الْعَرِيضِ الَّذِي
يَطْفَى بِضَخَامَتِهِ عَلَى خَدَيْهِ ...

ثم رفع صوته في حشجة يقول :

صل على النبي يا شيخ ...

— اللهم صل عليه .

— لقد اعتزمتُ تطليقَ المرأة والسلام ...

فَأَسْرَعَ الْمَأْذُونَ الشَّرْعِيَّ عَيْنِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، كَأَنَّمَا يُشْهَدُهَا
عَلَى أَنَّهُ أَدَّى مَا يَجِبُ ، وَأَنْ ذَمَّتْهُ بَرَاءَةٌ مِنْ ذَلِكَ الطَّلَاقِ
الْبَغِيضِ ...

وَمَا أَسْرَعَ أَنْ دُونَتْ الْوَثِيقَةُ الرَّسْمِيَّةُ ، فَدَسَّهَا مُحَمَّدٌ أَفْنَدَى ،
فِي جَيْبِهِ ، وَنَهَضَ بِجَرْمِهِ الْمُسَكَّلِ ، وَالْوَاحِ الْعَرِاضِ ، يَنْقَلُّ
خَطَاؤُهُ كَأَنَّهُ بَغْلٌ أَثْقَلَتْهُ الْأَحْمَالُ ، وَمَضَى يَرْفَعُ رَأْسَهُ ، وَيَتَطَاوَلُ
بِقَامَتِهِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ ذَرَفَ عَلَى الْخَامِسَةِ وَالسَّتِينَ ، وَهُوَ
يَقْتُلُ شَارِبَهُ الْغَزِيرَ فِي زَهْوِ الْمُنْتَهَصِرِ الْغَلَابِ ، يَحْسُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ
سُورَةُ الْقِتْوَةِ .

--- ٦ ---

رلم لا يحد نفسه فنياً ، وهو بحمد الله لا يشكو علة ، ولا يسرقه
 نراش المرض كيف يكون ، وهذه جوارحه وأعماله مسلمات
 لم يتخربها الزمن ، وتلك أسنانه يبت القصيد في ملهجة بهجانه لم
 تسقط منها سرة ، ولم يتسلم لها حد ، ولأنه ليعلمها بمختلف ألوان
 العنابة من تغليف وتسويك ، إذ يعلم حق العلم أنها مطيته
 الفؤاد إلى إصابة متعته الكبرى في الحياة : الطعام
 عجل محمد أفندي ، إلى داره ، وهو يفكر في مباينة
 الزوجة بما صنع عند المأذون الشرعي ، فيطعن كبرياءها ، ويشفي
 غليله منها .

يا لله !...

شدة ما أوقعت به الأذى : وأذاقته ضروب الهوان ...
 شدة ما سلبته ماله بمختلف الأحاييل الشيطانية التي يعيا بجشها
 أدهى الناس ...

٢

ما إن حل محمد أفندي ، بالدار ، وطوف بها ، حتى تبين
 أنها قاع صنف ، ليس بها من متاع ولا أنيس ...

فتلفت يمنية ويسرة ، وانبعث ينادى أهل الدار : ليلعلم سر
هذا الخوآء الذى دماها ، فلم يلب نداءه إلا راجع الصدى ،
يصدع له بالحقيقة المرة ...

ولم فى رأس محمد أفندى ، خاطر اهتز له ، فهرع من فوره .
إلى كن الأرانب . وجاء فى البحث والتفتيش ، فلم يجد إلا نثراً
من فئات وعشب .

فأرادت معالم وجهه ، وتسعر بين ضلوعه الغيظ والتحسر .
أقد أتت الزوجة على ما فى الدار ، فأعلنت فيها يد النهب
والاستلاب . وإن محمد أفندى ، ليغفر لتلك المرأة كل ما اقترفت
لو أنها أبت له ذخيره المفصلة من الأرانب ...

حتى تسلل أنها باستقلالها على تلك الدخيرة ، تشسوب إلى
قلب ، محمد أفندى ، سماً مرئياً ، وتعييه فى مقتل .

إن الأرانب طعمه المفضل ، وعلامة اقنى منها الشمان المكنزة
باللحم والشحم ، وتفنن فى تزويدها بالأغذية ، وقضى أطول وقته
فى التفتيش يأمر وينهى ؛ لى يتوافر له من تلك الأرانب ما
تتطلب له دفاعه من طاحام مئى .

جعل محمد أفندى ، يشطو فى الرذمة ذهباً وجمية بقديه
الثقلين ، يضرب بهما الأرض ضربات يزداد المكان بأعدائها

من رهبة واستيحاش ...

وأنحى الرجل على شاربه يفتله ؛ كأنما يقتلع جذوره ، ثم ألقي
بجسمه على صُفحة بنيت في أحد أركان البهو ، وأطلق العنان لفكره ،
بخلق حيث شاء ...

لا بأس ! ...

هذا آخر ما يلقاه من عنت الأقدار ...

إنه ليسدل الستار عليه ليستأنف حياة جديدة لا عنت فيها
ولا رهق ...

ليؤتئّن الدارَ ، وليشترين طائفة من الأرانب الجسام ...
ان يستعصى عليه أن يجدد عيشه ، ويهي لنفسه المتعة والرفاهة ...
ليصيرن أمره إلى خير ، مادامت هذه المرأة قد أخلت له
وجه الحياة !

وبعد قليل جعل « محمد أفندى » يعتصر جيئنه ...
إنه يفكر في الثأر عن أوقعت بداره تلك الخسارة النكراء ...
لينتقم لنفسه ، ولأثاث بيته ، ولأرانبه !
لن يؤدى لها مؤخر الصّدّاق ، ولا نفقة العدة ...
ولكن أى موقف يقفه من صبيته ؟ ... صبيته الثلاثة ...
لقد اصطحبتهن في مُنتقلها من الدار ، فلتكفل بهم ، وحسبها

ما نالته من سوائف خيره ..

كيف ينفق ماله على هؤلاء الصبية الخشاء ؟ ...

أينسى كيف كانوا يكيدون له ، ويمكرُون به ، وينصاعون
لأمرهم ذننه ، ويصبون عليه غارة شعواء ؟ ...

القرش الواحد أعز عليها وعلى بنينا من نجوم السماء !
استجمع الرجلُ بدير حسابه ، ويراجع ماله وما عليه ، وأخذ
يتداول الأرقام جمعاً وطرحاً وقسمة .. ماذا يكنى لتأثيث البيت ،
ولتعميره بالأرانب ، ولبناء كيانه من جديد ؟

وانتهى به التقدير والتدبير إلى طمأنينة وسكينة ، قنوته وإن
نالها كثير من التحيف ما برحت كافية وافية . في مستطاعه بها أن
يحبا وحده حباة رفاهية ونعمى .

أما الزواجُ فقد قرر ألا يُخطره بباله يوماً من الأيام ...

كفاه ما لحقه من ويلات الزواج ...

لقد آن له أن يوصدَ ذلك الباب الذى جرّ عليه شكولا من

المتاعب ، وجرّعه ألواناً من العذاب ! ...

وبغادر « محمد أفدى » داره ، وقد سرى في نفسه همدوء
وارتياح ، وشرع في طريقة يرسم بها منهاج حياته الجديدة ولكن
تخايل من حياته الماضية كانت تحوم في مخيلته بين الفينة والفينة .
لقد مضى ما مضى من عمره ، تطحنه راحا الحياة الزوجية ،
حيث لا قرار ولا مهادنة .

كان من قبل موظفاً في إحدى مصالح الحكومة ، يرى نفسه
مهيّب الجانب ، ويسرى إلى وهمه أنه مسموع الكلمة ، ويقع في
فهمه أن إليه تسند جلائل الأعمال .

والكنه على الرغم من ذلك أقصته الوظيفة إثر تحقيق ومناقشة ،
فأسخيل إلى المعاش ، بعد أن نالت منه اللسن ، وشاع - قوله - « القالة »
وإنه كلما خطرت بباله ذكرى تلك القضية الشؤنية ، تورد
نفسه ، ويصب جام النقرة واللعنة على أولئك الذين دبروا له
مؤامرة الخنثى الحق وسداها الانتقام ، أولئك الذين خيل إليه
أنهم قد ضاقوا بهيبته وخشيته ، فاتخذوا لإقصائه وسائل وضيفة
دون تورع ولا حياء ، وحاكوا له حيلة خفية ، تمنه ، وجازيته
عليه ، فأوقعته في المحذور ...

أخسند محمد أفندي ، سمته إلى قهوة المعلم شيهن : ليناً
بتدئين الجوزة . وكان صاحب القهوة قد واعدته منذ يومين أن
يبي له نوعاً نازلاً من الطبايق ...

ولكن ليس يحمل أن ينلق أنقاس الجوزة بيدن يصنفير
فيه الجوع . نليبدأ بطلب صحف مشحونة بالشواء الرشاش يقطر
دسماً ، ولتبيعه أكوأباً من الشاي العطر مزج رشفاته منه بأنقاس
الجوزة ، في جلسة رخية يتعوض بها من ذلك اليوم العاصف
الآنكد ...

وجد الرجل في السير ، متدفع الخطأ ، منفسح الساقين ، وقد
سطح على بحياه الطلاقة والبشر . ولم لا وهذه ساعة من فرائد ساعاته
التي يشعر فيها بنشوة الفوز والانتصار ؟ ..

إنه في هذه الساعة قد خلاص من وطأة الزوجة الناعسة ، كما
خلاص قبلاً من زوجات أربع ، بنى هن ، وأنجب منهن ، ولكن
مسكيران هن كانت تنتهي تباعاً إلى الطلاق ...

وأى ذنب هو جانيه ؟

النساء سواء ، الأولى كالثانية ، وكلتاها تشبه الاخريات .
عاشر كلا منهن أعواماً طالت أو قصرت ، وخرج من عشرين
جميعاً بصفقة المغبون . ليس لكل منهن هم إلا اجتراح المغام ،

«أبناؤنا المطالبين. ليس لهم دستور إلا السيطرة والتأمر والمعجزة...
ما كان أسمى تكاليف تلك الزوجات عليه...
حتى حلالهن كان يحشمه أفدح المشاق...
ألم يتكابدن مع الدين والرهن والبيع، ليوافق القضايا والأحكام،
فيؤدبن ما وجب من مؤخر الصدق، وما تقررن من ألوان
النفقات لهذه الزوجات، ولذلك الجحافل اللجيب من أطفاله
البنين والبنات؟

لقد كان يتحمل في جلد وصبر تلك الهموم كل مرة، أي
عند كل تطليق... منتظراً من وراء هذه التصفيات راحة البال
وإزاحة الأعباء عن كفيه، فهنا بالحربة والخلاص...
ما كان أغناه عن الزواج، ولكنه يعجب من أمره، كيف
كان في كل مرة وهو يوافق نفسه على حياة العزوبة، يجد خطاه
قد تورطت في الطريق إلى زوجية جديدة؟
أما اليوم فلا عود لذلك الماضي الكريه...
لن يندفع من ذلك الجحرم مرة أخرى...
فيما أصاب من المتع مَقْنَع له، وفيما لقي من الإرهاق رادع
أي رادع!

وتصرمت الأيام تستنفد جهرا ، دنفد أفندي ، في تصفية حسابات :
تلك الزوجية الأخيرة ...

وعلى الرغم مما عانى من المراوغة والتحايل خلاصاً من باهظ
النفقات ، لاحقته المحاكم تفرض عليه المغارم ، حتى ألقي نفسه
يوماً لا يملك أثارة من عقار في « القاهرة » ... لقد نفذت ثروته ،
إلا داراً متواضعة في قرية هي مسقط رأسه ، وأشتاتاً من أرض تزرع
واحرباءه ...

أتقضى زوجياته الخمس هذا القضاء المبرم على ما كان يملكه في
« القاهرة » ، مما يوفر له اليسار الرغيد ؟ ...

ونكس الرجل رأسه مهموماً ، يجترّ آلامه ، ويقدح فكره ...
ووثبت في خاطره فكرة ما عثم أن هب لها ، وفرح بها ...
لم لا يستأنف حياة جديدة في الريف ، يعمر داره ، ويتعهد
أرضه ، ويستنبث أطيب الثمر ، ويحيا في خفض ودعة ؟ ...

ثمة خير كثير ، وإنفاق قليل ...

ثمة مراح عريض ترتع فيه أرائبه المحببة ، فينعم منها بالسمين
المكتنز ...

— ١٤ —

ولكن عرضت له مشكلة لم يتبين لحلها وجهاً...
أتى له أن يحصل على الطباقي الممتاز الذي يعده له «المعلم شيخة»،
في الجوزة ؟ ...
أُتراه قادر أعلى أن يساو أنفاس تلك الجوزة التي يصاحبها
ويماسيها لا بملها ولا تمله .. ؟
وسرعان ما ضرب جبهته بيده ... أمن العسير على المعلم شيخة،
أن يوافيه في الحين بعد الحين بمؤنته من الطباقي ؟ ...
لله الحمد ...

كل شيء قد تمهد ، سوف يعيش سلطان زمانه في منجاة من
الضنك والأذى . ولم لا يطمع في حياة رخبة ناعمة ، وإن له
لإرادة صلبة تصدّع المشكلات ، وتأتى بالمعجزات ؟ ... إرادة
لا يقف دونها شيء ، ولكنها تقف سداً منبعاً ترد عنه أبداً
ويلات الزواج ! ...

٥

شدّ محمد أفندي ، رحله إلى قريته «كفر عقيق» ، ... فقد مها
مع الليل ، فواجهته التمتة والصمت ..
وقف يتطلع حوله ، فوجد كل شيء كأنما يتجهّم له ، فأحس

من فرور وحشة تباعته ، فقد شفع بجمومه الضخم ، متبعها نحو داره ،
هرباً من تلك الجبهة والزكود ... داره التي انقطع عن زيارتها
منذ أعوام طوال ، فكاد يضل طريقه إليها .

وما إن بلغها حتى استقبلته بمثل ذلك العبوس الذي استقبلته
به القرية : بناء متطامن متضائل ، يختنق بين جاراته الدور ؛
كأنما هو أنقاض يعيث فيها الخراب ..

ووقف في صحن الدار ، يتأمل فيما حوله . وقد زلزلت كيانه
رعشة واضطراب ..

أمسكوب عليه أن يقضى بين هذه القبور بقية أيامه
في الحياة ؟

وراح يوازن بين ما يشهد الساعة من كآبة وخمود ، وبين
مجالى حياته في « القاهرة » .. كيف كان يعيش في مسكنه الطيب ؟
وكيف كان يجد الإيناس في قهوة « المعلم شيحة » ؟ وكيف كان ينعم
هناك بالماء المثلج والجوزة الضاحكة والوجوه المستبشرة والمذيع
المسلي والباعة يهتفون بسلعهم في غدو ورواح ؟

أين تلك الحياة الزاخرة بألوانها وأضوائها من هذا الظلام
الداس بين الرموس والإطلال ؟

وأخذ يتنقل في الردهة الخاوية ، فكلمها خطأ خطوة علفت

بوجه أفداء . فالتمس الخلاص إلى مُسْتَشْرِفٍ يطالع منه صفحة السماء . قنّادت إليه أنسام رفيقة معطرة ، وأخذت عينه قوس الهلال وهو يترامى في عُرْض الأفق ليداناً بمطلع الشهر الجديد . فلبث الرجل وقتاً يتوسم الهلال ، ويستقبل ملاطفات النسيم . فاطمأنت نفسه بعض الطمأنينة ، وحلق بفكره في رحاب من الآمال والرغائب . وراح يسائل نفسه :

فيم الضّجير ؟ كل صعب يهون ... أما الدار في المكنة أن يقوم على أنقاضها مَغْنَى أنيق تتوافر له معدات الراحة . وأما القرية فإنها في حاجة إلى إحياء وتجديد . وإنه بهما لزعيم . ههنا مجال لأرائه العصرية يبثها ، ونظراته الثاقبة يُشعّرها ، وهمته للماضية يبدّؤها . فليشها غارة شعوا . على الركود والضّعة ، وليننشل القرية عما هي فيه ، حتى تصبح جنة أهلة عامرة . موفورة الحظ من أسباب المتعة والإيتاس .

وتعاوره الثاوب . وسرى في أوصاله الخول . وإذا هو يتهاك على أقرب كُومة من مكانه ، فاسترخى يسعف جسمانه ببعض الراحة ...

ودارت عجلة الأيام . وما برح محمد أفندي ، يعيش في ذلك الوكر الموحش ، كما يعيش جيرانه من أهل القرية في أوكارهم المتداعية وكلها خطر بياله : ماذا صنع بمشروعاته في التجديد والتعمير ؟ اريد وجهه من حق ، وهو هجس :

العجلة من الشيطان ، والعاقل من حزم أمره قبل المضي فيما يريد . وفي الأناة منجاة من مزالق التسرع ، ولكل شيء إبان ، ومادامت الإرادة الصلبة قائمة والعزم موفور الوقود فلا بأس من الإصلاح !

ولأمر ما برزت عبقرية محمد أفندي ، في التجديد ، واشتعل نشاطه في التعمير ، ولكنه خص بتلك العبقرية وذلك النشاط ركناً واحداً من أركان الدار . ومرفقاً خاصاً من مرافقه ... ذلك هو كنه الأرانب ...

لقد استبدت هذا الكسن بيقظته ورعايته ، فأشرف على بنائه ، واجتهد في تزويده بالآدوات والمهمات ، حتى أصبح مرعى طيباً لجيش من الأرانب على اختلاف الأنواع .

واتفق لمحمد أفندي ، أن يعثر بعد جهد جهيد على شيخ

طحته السنون ، كان يتمن الطموح كما يزعم في دبر السراة
والكبراء . وقد نسي مهنته من فرط التعطل ، وبعد العهد ،
وضعة الكبر... .

فغنى محمد أفندى ، بأن يستخرج هذا الرجل ، ويميط
عنه غبار الزمن ، ويجلسه على عرش المطبخ كما كان في سالف
عهده العبيد . .

وحق محمد أفندى ، أن يفخر بيناته حظيرة عصرية للأ... .
واستخرجه لذلك الطاهى التليد .. وكبف لاوقد راع القرية بظهور
من مظاهر المدنية والتحضر لم يكن لها بمثله عهد ؟
وكان محمد أفندى ، يبذل أطول وقت ..ه في صحبة
ذلك الطاهى المهتم ، يرقب الأرائب وهى فى القصور تنقلب
فى سمها مزعفرة يشبع منها القُستار ، على حين يتحلب فيه من
تشوف وتعجل

وكثيراً ما احتدم الشجار بين محمد أفندى ، وطاهيه فى شأن
ألوان الطعام ، وما يجب أن يتوافر لها من دقة وتحويد وإتقان .
فكان يحاول أن يفرض رأيه على الطاهى مسفهاً خبرته ، ناعساً
عليه تقصيره . ولكن زجرة الطاهى وتهديده بترك الخدمة كان
يحدو محمد أفندى ، على أن يغادر المطبخ فى تسلل ، قاصداً

مستشرف الدار الضيق ، يلتمس فيه الهواء لوجهه المحتقن ،
وأنفاسه المحتبسة .

٧

وكان يختلف إلى الدار شيخ من حفظة القرآن ، يُدعى
« الشيخ عزبان » . يقرأ الراتب اليومي من آي الذكر الحكيم ،
وكان « محمد أفندي » يخصه في الفينة بعد الفينة بالجلوس إليه تبرّكا
بقراءته . ولكنه لا يلبث أن يبادره سبات عميق ، فتنتقل من
خياشيمه حشرة غطيظ تبارى صوت القاريء في ترتيله .

وكان « الشيخ عزبان » لا يفنأ يربط لسانه بأسنى المدائح اسبغ
الدار ، متغنيا بأخلاقه وشأنه : فيستبقيه « محمد أفندي » وقتا ليقص
عليه طرفا من أعماله المجيدة في فترة اشتغاله بالوظيفة ، ويسب
الدهر الذي جازاه أقبح الجزاء ..

ولم يكن ينسى أن يتطرق بالحديث دائما إلى زوجته ،
وما أفاه من عطف عليهن وبرّ بأطفاله منهن ، على الرغم مما
أسلفن إليه من مَسَاءة وإيذاء . ومهما يكن من أمرهن فإنه
تقرير العين ، مطمئن الضمير بما صنع ، ضاربًا صَفْحًا عما
لحق . وحسبه أنه أدى واجبه للإنسان على خير . ما يؤديه ذو

مروءة وإحسان ...

كان « محمد أفندي » يسترسل في الإشادة بماضيه ، والتمدح بأجاده . فيستمع إليه الشيخ مبدياً تصديقه وإعجابه ، وهو بشخصه الضئيل متكش في عباءته الممللة ، يختلس النظر إلى جلسيه بمقلتين كأنما انتزعتا من عينيّ نعلب .

ولم يكن الشيخ يخرج من مثل تلك الجلسة خاوي الوفاض ، وإنما كان يُجزى بما تيسر من ضلع أرنب ، وشار من رز ، في لفائف من خبز رحراح ...

٧

طابت الحياة على هذا النحو ردّحاً من الزمن ، وأصبحت مألوفة « لمحمد أفندي » لا يشعر لها بملالة ولا ضجر . فقنع من حياة الترف والإيناس في الحضر ، بما وعته مخيلته من ذكريات يعرض صحائفها بين آن وآن .

ونجمت في دنيا « محمد أفندي » حادثة لم تكن له على بال ؛ إذ أصيب طاهيه بوعكة ألزمته مرقده ، فضاقت « محمد أفندي » بأمره ، وأسقط في يده ، وقضى يومه حيران أسفاً ، يدور في يده : كأنما يتفقد شيئاً أضاعه ، دون أن يعثر له على أثر .

وكان في مداره بالبيت يدنو من كنّ الأرانب ، يلقي عليها من الطاق فخرات مسترقة ، فيجدها راتعة بين أضغاث البرسيم ، تلتمع أعينها في بهجة ومراح ، وتتواثب سمينة متعلّقة من شمع وري ، فيقف « محمد أفندي » مهموم الخاطر مغيبط النفس ، وينصرف عنها متلبها من حقد وحقق .

ولم يجد « محمد أفندي » في ذلك اليوم بدءاً من أن يعدّ لنفسه مطعمه على شرّ وجه .

ولما حضر القاريء لم يجد بقية من طعام يصيبها ، بل إنه لم تسنح له فرصة يتمدح فيها بأجساد « محمد أفندي » ، إذ كان ربّ الدار مهتاج الأعصاب ، جهم الحديث .

وطالت العلة بالطاهي ، فثارت ثورة « محمد أفندي » ولم يعد له صبر ، فجأر بالشكوى إلى صديقه « الشيخ عزّبان » ، فطيّب الشيخ خاطره ، ووعدّه أن يعينه على حلّ هذه المعضلة .

وفي الغداة ، بينما كان « محمد أفندي » يترشّف القهوة ملولاً متملّلاً ، أقبل عليه شبّح ضئيل يمشي على استحياء ، متلقفاً بالسواد ، في بذادة هيثة ...

وتداني الشبح يلثم يد الرجل في تخشع ، فسأله :
من يكون ؟

— ٢٢ —

فأجاب الشيخ في صوت ضارع :

أنا بنت ابن «الشيخ عربان» ...

فرمقها الرجل بنظرة استعلاء ، فتبين له من خلال السواد عينان
براقتان يلتصق فيهما ذلك التوهج الذى ينبعث من عيني الشيخ
جدّ الفتاة .

فسألها :

فيم قدومك ؟

— بعث بي جدّى لأقوم بما يلزم .

فأجابها على الفور :

أتجيدين طهو الأرانب ؟

— أعاننى الله على مرصّاتك .

فبسط الرجل جانبيه ، وزوى ما بين حاجبيه ، وشمخ برأسه ،

وقال :

على أية الطرق تحسنين طهو الأرانب ؟

— على أية طريقة تشتهى ... مُرّنى تجدنى عند أمرك ...

وكان صوتها متخاذل النبرات ، فنهض « محمد أفندى » بصدرة ،

وصاح بها :

ارفعى من صوتك ... مم تخافين ؟ ... أوحش أنا تحذرينه ؟

وسما بقامته واقفاً ، وهو يقول في لهجة الأمر :

اتبعينى إلى كنّ الارانب ...

واندفع في خطاه يهزّ أرض البيت هزاً ، والفتاة تقفوه حذرة المشية ، فدخل كنّ الارانب ، واقتعد كومة عالية ، وجعل يرسم للفتاة خططاً اصطليـاد الفرائس : كيف تختلها بأعواد البرسيم ؟ وكيف تقطعُ عليها طريقَ الرّجعة والهرب إلى الشجرات ... ؟

وكانت الارانب قد احتفرت في أرض الكنّ سرايب دفيئة تستتر فيها ؛ كأنها تخايء الجيوش في ساحة الهيجاء ، وقد تعلم ذلك الحيوان بغريزته : كيف يحاذرُ ويتربص ويتحيل ؟ وكيف يقاوم ويتفلس ؟ فلم يكن اصطباذه بالأمر اليسير ... ولشدّ ماتعب محمد أفندى ، وتعب طاهيه في اقتناص ما يشتهى من ذلك الصيد الآتي العنيد ...

وبدأ محمد أفندى ، صياحه معلناً تعاليـه ، وأخذت الفتاة تعمل في همة ، مبتغية أن تظفر بثقة سيد الدار ، وتحوز رضاه ، واضطرت أن تزحزح عن جانب رأسها ذلك الخمار الملهل فبان منها وجهٌ مسنون. يميل إلى السمرة ، ذوقسـمات خلّت من دعامه ...

وبينما كان « محمد أفندي » مائلا على ربوته يأمر وينهى ، كانت الفتاة تتوالب في خفصة خلف الأرانب . تنفيذاً للأوامر والطلبات .

ولم يمض مديدٌ وقت حتى أفلحت الفتاة في اقتناص زوج من الأرانب متتى يترجح سماته وامتلاءه . فحملته إلى الرجل ووجنتها . تضرّجها نضرة النشاط ، وعيناها تلتصعان التماعة الفوز . فتناول « محمد أفندي » زوج الأرانب من يد الفتاة ، واحتمله من أذانه ، يتعرف زنته ، ويتحسس أعطافه فينهم واشتهاء . ثم أعاده إلى الفتاة طلق الأساير ، وما ملك أن صاح :

مرحى ! مرحى ! ... لقد أحسنت الصيد والانتقاء ...
ثم ماعتم أن استدرك يقطب جبينه ، ويستنقذ زناته وإمرته ،
وجاراً في خشونة :
إلى المطبخ ...

وانطلقا مآ ، وهناك خلج « محمد أفندي » معطفه ، ثم تشمر
واهتم ، واستأنف صولته في إصدار الأوامر . ونهضت الفتاة بكل
ما تتطلبه الحال من شئون ، فذبحت وساخت وشرعت تطهو ، والرجل
لا يفتر له صياح ، دون أن يشارك في شيء .
ولما اطمأن « محمد أفندي » إلى خبرة الفتاة وحسن قيامها بالعلوم ،

تزعج عن المطهى ، دالغاً إلى مستشرق الدار ، فما إن بلغه حتى
تهالك على مقعده الفسيح يستريح .

وبنما كان فى رخاوة وانطلاق خيال ، يرتق النوم فى عيذه ،
إذ هبّ - بلى خياشيمه شذاً القهوة المعطرة . واستبان له شبح الفتاة
تقرب منه القدح . فاعتدل فى فعدته ، وتأهب لارتشاف قهوته ،
وخالس الفتاة نظرة ترفع ، ثم أشار إليها بظهر يده أن تنصرف
لشأنها ، دون أن ينبس ببنت شفة .

وفرغ « محمد أفندى » من ارتشاف القدح ، فإذا « الشيخ
عزبان » يلوح متزاحفاً فى مشيته ، جثم الحياء . بادى التذلل .
وألقى عليه تحية بالغة الإجلال ، ثم اتخذ مجلسه عن كئيب منه ،
وشرع يتلو بعض الآى فى صوت خافت ، معداً أوتار لهاته
لتجويد وترنيم ..

واذ هما على هذه الحال ، قدمت الفتاة تسترجع القدح ، وما
لبثت أن عادت أدراجها . رفع الشيخ بصره فى محاذرة واستحياء ،
ونظر إلى « محمد أفندى » قاتلاً وهو يفرك يديه .

أهل سيدنا البك راض ...

فصوب الرجل عينه إلى الشيخ ، وقال مغضن الجبين :

عن أى شيء ؟

-- ٢٦ --

فقرَّجَ الشيخ ما بين شفثيه ، وبعر نظراته يَمَنَّة ويسرة ، وقال
مطأطىء الرأس :
عن البُنَيَّة . . . خادمتك ...
فأشاح الرجل بوجهه فى إهمال ، وهو يقول :
لا بأس بها ...
ثم ما عثم أن انطلق يتضاحك فى تصنع ، وهو يقول :
ما لبنتك هذه ضئيلة ، لا تكاد تبين ، كأنها حُرْبَاءة ؟ ...
فاستجاب له الشيخ يضحك كما ضحك ، واندفع يهز عطفه
ويفرك يديه قائلاً :
أطال الله عمرك ، ولا حر منا عطفك ورضاك ...

٩

وأعضلت علة الطاهى الهرم ، فلم تدع له طاقة باستئناف العمل
فواصلت الفتاة الاضطلاع بخدمة الدار ، تباكرها فى ربّق الصبح
وتظل فيها إلى غيوب الشمس ، وأحس د محمد أفندى ، فى داره
إحساساً جديداً لم يسبق له به عهد . ذلك أنه الأمر المطاع ، والداعى
المجاب . إذ خلا المطهى من زججرة ذبالك الطاهى الخريف ،
وحلت محالها تلك الطاعة المطلقة ، والانتقاد التام ...

وكان يقضى الرجل شَطْرَ يومه الأول على عرشه فى المطبخ.
بين المواقد والقُدور ، يتملى مرأى المطاعم ، ويتشمم ما يتضوّع من
شذاها ، ويستمتع من مذاقها بما يريد ...

فإذا انتصف النهار ، تجلت أمامه الصينية الرحبية ، وقد
احتشدت فيها صحافُ المشيات والخَضَرُ الحِرَّةُ يفة من نحو البصل
والكرات وما إياه ، وفى بُهرة الصينية يستقر الطبق العتيد تنشاخ
فيه أركان الآرانب على حشايا الرزّ المسمون .

فينبرى محمد أفندى ، للطعام وقد تطلق بحياه ، وتجمع لفرائسه
يناقشها الحساب . ويستصفى ما تحوى من زُبدة ولباب .

وربما انحرف بصره غير عامد ، فصادفه شيخ الفتاة ، مائلة
ترتقب إشارته . لتسارع إلى التلبية . فيهمم والطعام يعترك بين شذقيه :
طهوك يبشر بمستقبل حسن !

فتبتسم الفتاة خجولا ، وتجيبه خفرة الصوت :
أدام الله علينا عزك .

وما إن يفترّ ثغر الرجل عن مطلب حتى تكون الفتاة قد
أجابته إليه ، فهذا كوب الماء تنحنى به عن كعب منه . وذلك طبق
نظيف تقر به إليه .

وما يكاد يفرغ من طعامه . أو بالحرى : ما يكاد يفرغ الطعام .

بين يديه ، حتى يرى الفتاة قد مثلت أمامه بالمطست والإبريق ،
وعلى كتفها القوطة حاضرة . وهي فيما بين ذلك كله رائحة غادية ،
تدأب في إسعافه بما يطلب ، وفي النغضان إلى ما يهيجس في نفسه...
أما هو فلا يكون منه إلا العجيج بأوامر لا تنتهى : والسياح
بطلبات ليست بذات بال ، وإنما هي رغبة التأمير والاستمتاع
بالسبطرة . فلا يجد من الفتاة على أية حال إلا الطمع والإذعان .
وبعد الغداء يقبل « الشيخ عزبان » ، فيأمر « محمد أفندى » بجمع
بقايا المائدة ؛ ليحملها الشيخ في منديله الأحمر الفضفاض . وقبل
مبارحته الدار ، يسأل « محمد أفندى » ، في شأن فئاته ، ومبلغ رضاه
عنها . فيجيب الرجل :

لها مستقبل إن ثارت وصارت ..

- تعليمات سعادتك خير مرشد لها في الطريق ...

-- إنى أعلمها قدرَ ما تفهم ...

-- ثق بأن ثوابك عند الله عظيم ... إن الله لا يضع أحداً

المحسنين .. هي بنت يتيمة ، ونحن ليس لنا في الدنيا غير
عطفك ...

وفي بُسكرة يوم هبط الطاهي الهرم يتعامل على عكازته ،
وقد يكنه الدلة ، وتحيّفه الهزال . فتداني من « محمد أفندي » يحييه ،
فبوغت بلفائه . ولم يستطع أن يكظم استيائه ، فاستقبله بوجه
كالح . ولكنه لم يجد مندوحة عن رد التحية ، والسؤال عن الصحة .
واحتل الطاهي عرشه القديم بين المواعد والقذور ، وانتهت
مهمة فتاة الشيخ . فم يعد لها مجال .

وعادت الحياة في الدار كما كانت : زجيرة الطاهي تجلبجل
ولا تهدأ ، والمطهى حِمى لا يستطيع أحد أن يقترب منه إلا في
محاذرة واحتراس .

فكان « محمد أفندي » يفزع إلى مستشرق الدار ببشه همه
وضيقه . إذا استبدّت به الرغبة إلى مطالعة المطهى تسرّب إليه
على أطراف أصابعه ، ونظر من خصاص الباب يلتبس الطمأنينة
على ما يجري في عالم المواعد والقذور من شتون .

وكرت الأيام تنعى إلى « محمد أفندي » تضاؤل نفوذه ،
وتزايّل هيئته ، وتناقص راحته ، إذ عاوده ما كاد ينساه من
خدمته لنفسه ، وقيامه بحاجاته ... إذا عطش فلا سبيل إلى ريّته

إلا إن نهض يملأ الكوب ، وإذا أكل حتى تضلع وأثقل لم يجد مندوحة من النهوض بعينه إلى مرافق الدار يغسل يده . فأما شهوه التامر ونزعة السيطرة فقد احتبست في قفورها لا تجد السبيل إلى الانفلات .

ولم تكذتمضي أيام على قدوم الطاهي ، حتى مال « الشيخ عزبان » على « محمد أفندي » يشكو إليه ما دهاه من ألم في الظهر ، ويرجع في المفاصل ، مما اضطره أن يتوكأ على كتف فتاته في ثقله ..

ومن ثم كان « الشيخ عزبان » يؤم الدار مصطحبا تلك الفتاة ، فإذا قدم لبان الطعام ، حاولت الفتاة أن تتقدم سيد الدار على مائدته كسابق خدمتها له ، فيحس « محمد أفندي » براحة فقدما منذ عاود الطاهي عمله

وكان ذلك الطاهي إذا لمح الفتاة في هذه الفترة القصيرة ، تمكر عليه بخطواتها صفو استقلاله ونفوذ ، اعتلجت في نفسه زجاجة حبيسة ، وحدها بنظرات حداد ، واستعاذ بالله من تلك المنافسة الشعواء .

وشاعت في أرجاء الدار سارية من الخصومة المكبوتة . والاستنكار المكنون . وكلما طلع يوم جديد ، شعر « محمد أفندي » ، باشتعال رغبته في الخلاص من هذا المأزق ، وتصفية ذلك الجو ،

— ٣١ —

والرجوع إلى حياة طمأنينة وراحة وسلام .

١١

و ذات يوم لم يكبد الشيخ ينصرف في صحبة فتاته بعد الغداء ،
حتى زحف الطاهى الهرم إلى سيده يرّجف غيظاً ، وإذا هو
ينهى إلى « محمد أفندى ، أن فتاة الشيخ قد أعملت في المطبخ يد العبث .
وأنها جرّوت على أن تدد بعض الأواني ، وتسلب بعض الأطعمة .
واندفع الطاهى في نكيره وسخطه ، يعلن أنه يحرم على الفتاة
مقاربة المطبخ بعد اليوم ، وإلا أقصم ظهرها ، وقذفها فاقدة الأنفاس .
وكانت هذه القذبة أذناً بانفجار البركان ، فقد نقرت
أوداج « محمد أفندى ، وفار الدم في رأسه ، وصاح من فوره
متهدج الصوت :

صل على النبى .

— اللهم صل عليه .

ومرت لحظة ، فأحس « محمد أفندى ، ريقه يفيض . وأوصاله
تُسرّعد . فردد قوله :

قلت لك صل على النبى .

— ألف صلاة عليه .

— أنت منذ اليوم مطرود يا حضرة ...
 فقوى جىء الطاهى بتلك الكلمة ، وعاجلته البهتة ، وأحد بصره فى
 الرجل ؛ كأنما يستوضح من ملاحظه كنهه ما سمعت أذناه . وهمهم :
 مطرود ؟ ... مطرود ؟ ... كيف ؟ ...

— مطرود والسلام ...
 وتمالك الطاهى ، واستعاد ثقته بنفسه ، ورى الرجل بنظرة
 نكراء ، وصاح فى طهجة رعناء :
 مطرود أو غير مطرود ... هذه البنت الحسيسة وجدّها المحتال
 لن تطأ أقدامها عتبة الدار ، بعد الآن ...

استمع محمد أفندى ، للطاهى ، وهو يرسل هذا القول ،
 وجعل يمعن الفكر فيه . فلم يخرج إلا بمعنى واحد ، هو أن سيد
 الدار رجل غيره ، وأن الزمام سُقلت من يده ، وأن أمره بطرد
 ذلك الطاهى الأحمق أمر مشكوك فى تنفيذه ، وإذن فالطاهى
 مستأنف عمله كدأبه . ولن يظهر فى الدار ظل لذلك الشيخ وفتاته ...
 وهم محمد أفندى ، أن يواجه سطوة الطاهى بما يقضى عليها ،
 فحاول أن ينهض مستجمعاً متشجعاً ، يستعين جوارحه ، ولكن
 سرعان ماخذلته ركبتاه المهترتان ، فتهاوى على مقعده العتيد بهمهم
 فى تضعضع واندهار ...

وما عثم أن رأى شبح « الشيخ عزبان » مقبلا عليه ، ولم يكن قد غادر الدار كما توهم الطاهى ، وإنما ارتفعت الستارة عن هذه المأساة ، وهو فى منصرفه ، فرجع منزويا يتسمع ... ثم أقبل مبهور الأنفاس ، يتصنع الإعياء ، وألقى بجسمه عن كשב من « محمد أفندى » ، وصاح تخنقه العبرات :

لا أغلق الله لك بيتاً ... لا تقطع عيش هذا الطاهى المسكين ...
إنه رب أسرة ... أما أنا والبنت فكلاهما فداء لراحتك ... خيرك
يعمنا دخلنا الدار أولم ندخل ...

وشعر سيد الدار بقواه تتجدد ، وبعزمه يتشدد ، فاستطاع أن يقول فى شبه صحيحة :

لا ... لا ... إنه مطرود بلا رجعة ! ...

فما زال به الشيخ متوسلا يقول :

العفو من شيم الكرام ... أين يذهب الرجل إن تخلّيت عنه ؟
ليس فى غنىة عنك ، وما فى مقدوره إنكار معروفك ... لا يتكر
المعروف إلا كافرٌ جَحُود ... لقد كان قبل خدمته لك بائس
الحال ، فأطعمته وكسوته ، وبدّلت له بالْبُوس نَعْمى ... إنه مدين
لك بالحياة ... إنه ...

فضاق الطاهى بذلك ذرعا ، وقاطع الشيخ ، وهو يرميه

— ٢٤ —

بمشواظ عينيّه :

حبيبك يا شيخ حبيبك... ما هذا الحرّاف ؟

فاستدار نحوه ، الشيخ عزّبان ، قائلاً :

أتذكر أن سيدنا البك جعلك إنساناً بحق ؟

— أنا إنسان منذ خلقني الله ...

— إنسان أو غير إنسان ... عليك أن تقترب من سيدك ،

وأن تستغفره بما فرط منك ... تقدم فقبل يده ورجله ...

— أقبل رجله ؟ ... ما هذا ؟ ...

فاشرأب ، الشيخ عزّبان ، متنمراً ، وصاح ثائراً :

إنه وليّ نعمتك ... طأطأ رأسك ، واركع أمامه

واستغفر ...

— الركوع لله وحده ...

فصلب الشيخ قامته ، ووقف أمام الطاهي وجهاً لوجه ،

وقال :

اتق الله يا رجل ، واعرف لسيدك واجبه ...

— من الذي يجب أن يتقى الله ؟ ... أنا أو أنت ؟ ...

— أنا رجل لاهمّ لي إلا تقوى الله ، وعرفان جميله ، والإقرار

بفضل ذوى الفضل ...

- بل إنك لا همّ لك إلا الأحاديث الفارغة التي تلتبس بها
التسكع في بيوت الناس ...

- أمتسكع أنا أيها المخبول ؟

- بل إنك شيخ فاسد مملوء القلب من مكر وخداع ...

فالتفت « الشيخ عزبان ، إلى « محمد أفندي ، وبدأت على وجهه
المسكنة والاستغاثة ، وقال في لهجة المتباكي :

أنا فاسد ما كر خداع ؟ ... لا بأس ... لا بأس .. إني رجل
تجمعت في كل خصال السوء ... لا بأس !

وسمى بطرف منديله إلى عينية يمسحهما ، وواصل حديثه مخاطباً
« محمد أفندي ، في صوت متخاذل :

إني مسامحه لوجه الله ... وأضرع إليك أن تعفو عنه ... إنه
رجل مسكين ذاهب العقل ، ليس عليه فيما يقول حرج ...

واقرب من « محمد أفندي ، وأخذ بحاشية معطفه ، وقال :

أستحلفك بالله أن تعفو عنه ...

فصاح الطاهي محدداً مستكراً لما يسمع :

وإن لم ينفُ عنى فإذا يكون ؟ ...

فانتفض « الشيخ عزبان ، وأقبل على الطاهي يسدّد إليه نظرة

حامية ، وصاح :

يسكون أن يَخْرَبَ بيتك ، وتصيح فيه كالكلب الجائع ...
فامتدت يد الطاهي إلى مُخَنَّق الشيخ ، وأخذ بتلاييه ،
وهو يقول :

الكلب الجائع أنت يا وِجْج ...
وسرعان ما اختلط الصياح ، وتشابكت الأيدي ، وتفارعت
اللكات ، و محمد أفندي ، لا يزيد على أن يرقب المعركة بمحلق
العينين في ذهول و وَجِيف ... يريد الكلام قترعش شفتاه ،
ولا ينطلق له صوت . ويحاول الحركة فتختلج أوصاله ، ولا يستطيع
أن يتقدم خطوة ...
يا لله من هذه المعركة العصية التي يخوضها محمد أفندي ..

الآن

إنها موقعة فاصلة يتقرر بها مصير سلطانه في الدار ... هل
ينتصر ، أو تكتب له الهزيمة ؟ .. أ يكون هو السيد الماطع ؟ ...
أم نكون لهذا الطاهي المستبد سلطة الأمر والنهي ؟
وتدقق حشد من أهل القرية يستجيون للصياح ، فانتحروا
الدار ، وما لبثوا أن فرقوا بين الملاحمين ، وأقبل رَهْط منهم
على محمد أفندي ، يحيه في تجلة وإكبار ، ويسأله سَجَلِيَّة الخبر .
وكان الرجل يتفصد جيئه عرقا ، وهو جامد في مكانه ، كأنما شدة

إليه بأمراس... واستطاع بعد لآى أن يملك زمام وعيه ، وألقى
نفسه يقول فى صوت أبحّ :

صلوا على النبى .

فارتجت أرجاء المكان استجابة له ، وأشرعت إليه الأعين ،
واحتبست الأصوات اشتغافاً لما يقول .

وشعر محمد أفندى « بالعزة والإمرة ، وألقى نفسه فى مقام السيادة
بين أتباعه ، فقال :

هذا الطاهى مطرود منذ اليوم ...

وأراد أن يردف هذه الجملة بأخرى ، فلم تسعفه القرينة
بجديد . واضطّر أن يختم خطبته بقوله :

انتهى الأمر ...

١٢

وأطلّ الدار عهدٌ جديد ... عهد استقرار وطمأنينة وسلام ...
المطهى مباح لرب الدار ، يقضى فيه من وقته ما انتهى ، وأرجاء
الدار طوع صوته يرجئها بما شاء من صيحات الهيمنة والتأمر .
وحفيدة الشيخ تغدو وتروح مدعنة تلبى " مطالبه فى غير ولاء .
والصينية تزخر بشقى ما تهفو إليه نفسه من مشهيات وخُضْر ،

يتوسطها ذلك الطبق العتبد الذى تتشأخ فيه أركان الارانب على
حشايا الرزّ المسمون ... و« الشيخ عزبان ، يختلف إلى الدار
يقرأ ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ويعطيل جلسته إلى
« محمد أفندى ، يزف إليه المكرّر من مديح الملق والزّاني .
وكثيراً ما يدعو « محمد أفندى ، إلى ملاعبته بالنرد أو الورق ،
فلا تنتهى الملاعبة إلا بهزيمة الشيخ على الدوام ، وصباح رب
الدار بالتهكم والسخرية ...

فإذا مال ميزان النهار ، تهبأ الشيخ لمصادرة الدار مصطحباً
فقاته ، وقد تأبط صرّة عامرة يحاول أن يخفيها تحت عباءته ...
ويوما ضاقت معدة « محمد أفندى ، بأمرها ، فأعلنت العصيان ،
وما هى إلا أن استوطن الرجل فراشه يحاول علاج الحال : وعنى
به « الشيخ عزبان ، وقاته ، فلم يألوا جهداً فى تمرينه وتدريب
شأنه وإسعافه بالأشربة المدفئة . ولازمه الشيخ يؤنسه بالنوادر
والطرف ، وما زال كذلك حتى انسدت أستار الظلام ، فهم الشيخ
بالانصراف ، ولكنه كان يتباطأ ويتلكأ ، وأخيراً أقبل على
« محمد أفندى ، يقول :

ليس بهين على أن أتركك ... سأبيت الليلة تحت قدميك ،
سأهرأ عليك ... أما البنت فلأنها تظل فى خدمتك ، رهن إشارةك ..

سمع محمد أفندي ، هذه الرغبة ، فأكبر ذلك الصنيع من شيخ
هرم يبذل راحته فيما يراه واجبا عليه .
وانقضت الليلة في سلام ...

وتوالى الأيام تسجل لزوم الشيخ وفتاته للدار لا يبرحانها ،
وهما دائبان في خدمة محمد أفندي ، متأنقان في تأدية مراسم الولاء
له ، والاعتزاز به .. فازداد رب الدار استشعاراً لعظمته ، وثقة
بنفسه ، فكان لا يهدأ من صباح وتأمر ، ولا يشك في أنه مُلاق
سماً وطاعة

١٣

وعلى سر الأيام استطاع الشيخ وفتاته أن يظفرا من رب الدار
بموفور التقدير ، فهو يطمئن إليهما في خاصة شأنه ، ويعول عليهما
في الجليل والدقيق من أمره ... وكان ذلك سيلا إلى أن يحتل
الشيخ وفتاته مخزن المتونة ، فيتخذاه محلها المخار ..
وبدت على الفتاة مخايل النعمة ورغادة الديش . فاعتدل
قوامها وتورد وجهها ، وترنحت أعطافها من امتلاء .. فكان
محمد أفندي ، يسترق النظر إليها ، باذلا جهده في التخفي
والمسطرة ، ولكن الشيخ الطيب لم يكن يعز عليه أن يتصيد تلك

الظرات المخالسة ، وأن يكتبته ما لها من غور . فكان
يخلو إلى حفيدته يُسرّ إليها الحديث ، وكأنما هو يرسم معها
خططا ذوات بال ...

ورثت الفتاة مَعْنِيَةً بهندامها ، حَفِيَّةً بزيئها ، فإذا قدمت
بالقهوة إلى محمد أفندي ، قاربت من خطوها ، وغضت من
بهرها ، وفزعت إلى خمارها تسبله على جانب وجهها ، ولكن الخمار
لا يلبث أن يسقط ، فيبدو شعرها قد ترامت ضفائره ، وعلى جبينها
قد انعقد منديل مَوْشَى الحواشي ، مختلف الألوان . فأما وجهتاها
فإنهما تنضرجان كأنهما قد أدركتهما صبغة الخجل والحياء ، وأما
عينها فتظهران كحيلتين ، لا تدرى أمكحولتان هما بأشد ؟ أم
هذه صبغة الله ؟ ...

وإن الفتاة لتسارع إلى خمارها تلتقطه ، وقد اختلطت في قسماتها
الاضطراب بالابتسام . ويتضحك محمد أفندي ، وهو يقول :
يا لها من فتاة ساذجة !

وتوالت الأيام تزيد من خلوات الشيخ بحفيدته ، وبين يوم
ويوم تتجلى نتائج هذه الخلوات ...

و بينما كان « محمد أفندى » ذات ليلة مضجعاً على مُتْكته ، بعد
عشائه ، وقد رنّق في عينيه الوُسن ، طرقت الفتاة حجرتَه تحمل
صينية القلل ، وكانت كشأها الجديد بادية الزينة ، متضوّعة العطر .
فجازت برب الدار صامته خافضة البصر ، فثابت إليه يقظته ، وجعل
يرقّبها وثّاب النظرات ...

ولما أقرت الفتاة الصينية في مكانها من النافذة ، وهمت أن
تعود ، عاجلها « محمد أفندى » بقوله :
اسقيني يا صبية ...

فأحضرت له القلة . يفوح منها العسّق ، فأخذ يترشّف منها ،
وعينه تراءحان الصبية وتغاديانها ، وبخور القلة يمازج عطر الفتاة
ويزدحم على خياشيمه ... وما كاد يناولها القلة حتى هممت
في صوت خنور :

هنيئاً ..

وقبل أن تغادر الحجرة . قالت له كاسرةً من طرفها :

نوم العاقبة يا سيدى !

فشكر لها « محمد أفندى » رقة عاطفتها . ومخايل الغبطة

تتجلى على أسراريره .

وتقلب الرجل على متكته ، وهو يجاهد أنفاسه ، ثم انسرح
في آفاق شتى من الأخبلة ...

ما أعظم الفرق بين صبايا الريف ونساء المدائن ... صبيّة
الريف مؤدبة مهذبة ، ساذجة طيّعة ، طيبة القلب نقيصة ... أما
الأخرى ، والعياذ بالله ، فقد عرفها بجُمعاً للشُرور والآثام :
خبث نفس ، وطول لسان ، وجنون خبيلاء ...

وفي الأمسية التالية كمن « محمد أفندي » في متكته ، يترقب
« صنيعة القلقل .. وما إن أقبلت الفتاة تنخطر ، وعلى أعطافها يتهدل
نخارها المصفاف ، حتى سارع الرجل إلى طلب شربة ماء . فلما نفع
غلاته ألغى نفسه يقول للفتاة :

حقاً إنك بنت حلال ، وإني لراض عن خدمتك ...

فجشت الفتاة من فودها على يده تلسمها في خشرع . ثم طفقت
تسمح من عينها أنداء من دموع ...
فنظر إليها دهشاً مهتاجاً يقول :
ماذا يبكيك يا صبيّة ؟ ...

— أبكي من فرط ما ألقاه من عطفك يا سيدي ... لم أكن
أعرف أن في الدنيا أحداً يحمل قلباً مثل قلبك الكبير ... إنك

— ٤٣ —

تأسّر بمعروفك النفوس ...

— حسبك ... حسبك ...

— قسا برأس جدى إن ما أقوله هو الصدق الخالص ...

ما ذاق معروفك إنسان إلا قفى فى خدمتك ... أنا وجدى ننزلك

من قليبنا أكرم منزلة ... نكبرك ... نجلك .. نعزك ...

نحبك ... نحبك الحب كله ...

ثم عقد لسانها التلعثم والارتباك ، فحنت رأسها ، وأسبلت

خمارها ...

وشاعت الابتسامة على محيا الرجل ، واهتزت أوصاله ، وهمهم :

إني مصدقك ... وإن حبك أنت وجدك ليس بخاف

عنى ...

فرفعت الفتاة رأسها شرقاً بدمعها ، وهى تقول فى حرارة

واهتياج :

أطال الله عمرك ، وزادك عافية وعزة ، بحق جاه النبي وآل

بيته ... دعوة من القلب تتفتح لها السماء ...

وندّت من الفتاة تنهدة حارقة راعشة ، ثم انحنى على محمد

أفندى ، تلثم حاشية جلبابه ، وانفلتت تغادر الحجرة مهرولة :

كأنما لا تقوى لحجلها على أن تطبل البقاء ...

ونهض ، محمد أفندي ، يَذْرَعُ الحجرة بطىء الخطو ، ثقیل
الحركة ... إنه لم یستطع أن یظل علی مكانه ... ما أحوجه إلى
أن ینفّس عن نفسه ! ...

وعلا بصدرة متنفخاً ، وقد استثار وجهه ...

لقد برّح الخفاء ...

لقد وقعت الفتاة فی شرك هواه ...

كل حركة منها تنم عن هذه الحقيقة الصادقة : صوتها الخنون ،
نظراتها الجیاشة ، دمعها المطواع ، حديثها الفوار ...

والفی ، محمد أفندي ، نفسه یتزاحف إلى المرأة ... أليس
الشبح المائل أمامه صورة رائعة من الرجولة الكاملة ؟ ... عیة
وجلّال ... طلعة مشرقة ... عین قفاذة ...

وانتفش الرجل مزهوا یقتیل شاربه الغلیظ ...

مسکينة هذه الفتاة ! ...

ما أبینَ عذرها فی التعلق بتمل هذه الشخصية الجبارة ! ...
وتابع سیره فی الحجرة بین الخطوات ، وقد جعلت أشتات
الخواطر تتداعی فی مخيلته ...

أما أن الفتاة له عاشقة ، وبه مدلهة ، فذلك أمر فوق الشك
والخلاف ! ...

— ٤٥ —

ولكن ما شعوره هو يحوها ؟ ...

شعوره ؟ ...

أفى المحفول أن يفكر « محمد أندى » رئيس مخازن وزارة
المالية الأسبق فى أن يأذن لقلبه أن يخفق لمثل هذه الفتاة
الرفيعة الدنيا ؟ ...

أو ينسى أنها عاشت وما زالت تعيش فى كفالة جدها القارىء ،
ذلك الذى يتقوت من فئات المقابر ، وقضالات الموامد ؟ ...

وما شأن قلبه اليوم بالغرام والهبام ؟ ...

لقد فرغ قديما من سلطان ذلك القلب وإذلاله ! ...

إن الرجل اليوم سيد نفسه ... هيات أن يدع لقلبه مجالا للتمرد
والتحكم والإملاء !

وما قيسة المرأة فى نظره الآن ؟

اتمد أنبت ذلك العهد الذى كان فيه ينقاد لسحر النساء ، فأصبح
الساعة همر الساحر ، وهو المعزّ المذل !

ولكن ما هذه الأفكار والخواطر تتداعى فى رأسه حين يفكر
فى تلك الفتاة للساذجة العطوف ؟

ليس فى الأمر مطمع فى أن يقابل حبها بحب ... إن خطبها
إيسير ... لا ريب أنها جذيرة بلون من العطف والتقدير ، لقاء فله

تبذل من خدمة ، وما تسكن من إخلاص...
ووجد قدميه تدوقانه إلى صينية القلل . فأخذ إحداها ينهل
منها . وراح يستنشى بخورها . وكأنه يستروح في هذا البخور
عطر الفتاة . .

وعاد إلى المرأة يطالع فيها بحياه ، ويفتيل أمامها شاربه...
وبعد فترة من الزمن شوهد الحلاق يختلف إلى منزل محمد
أفندي ، يعنى برأسه وذقنه وأظفاره مستعيناً في عمله بألوان العطور
والدهان... .

ولوحظ على ربّ الدار أنه حريص على أناقته ، يهبها طويلاً
من وقته... فإذا تنقل في الدار مشى في تخطر ، وإذا تكلم كان
كأنه يترنم ، وإذا تحدث إلى الشيخ عزّابان ، خلط حديثه
بالدعابات والأفاكيه... .

أما صلته بالفتاة فكان ينعشها غموض حائر ،
وصمت قلق... .

ولم يكن بينهما من الحديث إلا تبادل كلمات مألوفة ، عليها
صبغة الرقة والتلطف .

وظلت الفتاة منطوية على نفسها ، ولكنها كانت في
الفينة بعد الفينة تُخالس ربّ الدار خواطف النظرات ، ونواغم

... ٤٧ -

التهديدات .. وما كانت تغفل ساعة عن تهديد نفسها بالترين والتعطيل ..

١٥

وتواردت أيام على هذا النحو ، ثم بدا على الشيخ عزبان ، طارىء من وجوم وسهوم . فكان إذا جلس إلى محمد أفدى ، بدا كأنما يتهاى الإفضاء بأمر يكشف عما يتلجج في نفسه من قلق ... ثم لا يلبث أن يتظاهر بالنكوص وتلافي الحديث ، والعدول بالكلام إلى مجرى آخر ، فيسأله محمد أفدى :
ماذا يريد أن يقول ؟

فيعتذر الشيخ بأعذار مختلفة ، ويعتدل بأشياء من العليل ، وتأخذ علامات السهوم والوجوم مكانها من قسبات وجهه . كما كانت من قبل . . .

وآن للشيخ أن يضع حدا لهذا التمل والانتظار ... فقد ضاقت نفسه بذلك الليل الغامض البهيم الذى أبطأ انبلاج فجره ، أو لعل الآخرى بالقول أن الشيخ قد أحس أن الموضوع قد نضج ، وأن الثمرة قد أينعت ، وأنه قد حان القطاف !
وأقبل صبح يوم يجر جسمه المهزول ، قاصداً مُستشرفاً

— ٤٨ —

الدار ليلقي ، محمد أفندي ، وهو مضطجع على أريكته . يسبح في ملكوت الله ...

واتخذ مجلسه غير بعيد منه ، وجعل يجمع بعضه إلى بعض ،
ويلملم ما انتشر من أطراف عباة ته ...
ثم طأطأ رأسه لحظة وإنهال على يديه يفركهما في اضطراب ،
فقال له ، محمد أفندي ، :

خيراً يا شيخ عزبان ، ...

فكث الرجل خافض الرأس ، وهمهم في صوت متخاذل :

لقد حضرت في أمر أرجو أن تعينني على تحقيقه ...

— لك ما تريد ، يا شيخ عزبان ، ...

— لقد اقينا من برك وكرمك فيضاً لا ننساه ماحيينا ... وإني

أطمع أن تتم جملك بفضل جديد ..

— طلبك بحاج .

— تسمع لي أنا وحفيدي أن نبرح الدار ، وأن تعفينا من

واجب خدمتك ...

فألقى عليه ، محمد أفندي ، نظرة فيها الدهش والتعجب .

وهمهم :

تركان خدمتي ؟ ... ماذا جرى ؟ ..

فاشرأب الشيخ ، ورفع يديه إلى السماء ، وعز يقول عاصحاً :
قسماً بالله العلي العظيم إني ما رغبته إليك في هذا الأمر
إلا بالرغم مني ... ولو خيرت ما اخترت ، إلا أن أظل بقية أيامي
تحت قدميك ، حتى أفضى نَحْبي ...

فاختلجت عين رب الدار وهو يقول :

لم أفهم شيئاً ... لماذا تركاني إذن ؟

فصلب الرجل قامته جهد ما يستطيع ، وقال وهو يُزيغ بصره

عن جليسه :

أنت سيد العارفين ، وفي فطنتك غُنيّة عن الشرح والإيضاح

اللهم اشلنا بالستر والسلامة !

وانحنى محمد أفندي ، على شاربه يفتله ، محاولاً أن يتفطن

للأمر ، حتى يكون سيد العارفين بحق ، وحتى يكون الفطن الذي

لا يفتقر إلى شرح وإيضاح ...

ولكن الشيخ أسعفه بقوله :

ليس في المستطاع أن أدع البُنيّة في الدار بعد الآن ...

حسبها ما انتهت بها الحال إليه ...

وأراد محمد أفندي ، أن يتكلم ، ولكن خاقته بديته ،

بحُف ريقه ، وجمدت الكلمات على لسانه ، وسمع الشيخ يتابع قوله :

سأزوج البنت رجلاً اخترته لها ... رجلاً من بيتنا ،
ملائماً لنا ...

وتهدج صوت الشيخ ، وهو يقول مهتاجاً :
لأرغمها على الزواج ، رضيت أو أبت ... أما ما تسميه
قلها فإني سأسميه سحماً ... عجيب أن يجمع الخيال بتلك البنت
الغريبة إلى ذلك الأفق البعيد ...
ثم صوّب نظره ، كأنه يستمدّ من السماء عوناً في مأزقه
الهرج ...

وما لبث أن أقبل على رب الدار هابطاً على يده يُنديها
بدموعه ، وهو يقول :
عفوك إن كنت في ثورة نفسي قد أسأت إليك من حيث
لا أريد ... اشملني برضائك ، ودعني أفرّ بالبنت إلى مصيرنا
المقدور ...

وما هي إلا أن انصرف الشيخ عجلانَ الخطأ ...

يا لها من ساعة دهياء ، قضائها و محمد أفندي ، يتقلب على
أريكته لا يستطيع برّاحاً ، ولا يجد من ضيقته فرجاً ...

انفرد به محمد أفندي ، في الدار يومه الأطول يجترّ همه ،
ويعاني وحشته ...

ولما عضّه الطوى دبر له طعاماً كما اتفق ...
والحت عليه شهوة القهوة ، فلم يستطع بعد كلاً إلا أن يُعدّ
قدحاً ليس بالسائغ ...

ولم يلبث « محمد أفندي » أن شعر بأن وسائل راحته تجشمه
خروجاً من الكلفة والتعب ، سواء في مشربه ونظافته وتنقله ...
فإن سمّت نفسه إلى شيء شقّ عليه أدائه ، وحسب له
أسر حساباً

فلما جسن الليل تكاثفت عليه الوحشة ، واشتد به الضيق ،
فترك مُستشرف الدار ، منتحياً حجرة النوم ، وجاز بالمرآة ،
فتمسك تيجانها لحظلة ، فارتاع مما وضع له من سمحة غبراء كاد
ينسكرها وألقى شاربه الغليظ قد تدلّ دل وتهلّهل ... فأدبر عن المرأة
يقبض خطه ، وتهالك على المنكح المتقاذفه المتطورات ...

حق للجد أن يفعل ما فعل ...

إنه يريد أن يقف تلك العاطفة الجروح التي استبدت بالفتاة ...
إن الشيخ لا حزم عملاً ، وأنور بصيرة من أن يتطلع إلى تدبير
تخير هذا التدبير ...

لقد فُتكر في تزويج حفيدته مُنمياً آخر ، كتبها لجناس ^{الفتاة}
العائقة ، وحسباً لذلك الموضع ...
ما أكرم شفاق الشيخ ، وما أنبل نفسه !
إذن ستؤفّ الفتاة إلى رجل لا يهفو قلبها إليه ...
ونخايل أمامه طيف الفتاة ناظرة إليه في وجد واسترحام :
يمازجها حياءً وطهر ...
وصعد الرجل تهدة صيقة لم يطق لها كتبنا ...
وتلاحقت لناظره مشاهد من حياة الفتاة في داره ، فرآها في
كنّ الأراب رشيقة كالطبي ، فرحة مرحة ... ورآها وهي مرسنة
السمع ، لا يكاد يلفظ من قول إلا سارعت إلى تليته ...
وهل ينسى مقدّمها في الأماشي بصينية القمال يخسوع
بخورها ، فينحش نفسه ؟
وهل ينسى تلك الابتسامة الوديعه الحبيسة التي تودعه بها
حين تحيه تحية الانصراف ، قائلة :
نوم العافية يا سيدي !
وزفر محمد أفندي ، زفرات متلظية ، ثم استرخى على مكتبه ،
وترك للأفكار عنائه تطوّح به ، حتى أسابه الإعياء إلى المنام ...

وَبُسْكُرَةَ قَدِيمِ « الشيخ عزبان ، الدار يقفوه ذلك الطاهي
الطرم ، وقد تبدت على أساريه ذلة ومسكة ، فأقبل كلاهما على
« محمد أفندي ، يحييناه بحية الإصباح .
ثم أخذ الشيخ بيد الطاهي ، مدنيا إياه من رب الدار ،
وهو يقول :

قرب وقبل يد مولاك ، فإنه سمح النفس غفور ...
ولم يكن « محمد أفندي ، قد أعد لهذه البغته عُدة ، من تدير ،
وأحسن بالطاهي يركع بين يديه ، وهو يهيمهم بكلمات الاعتذار
والاستغفار .

وسرعان ما أفلتت من فم سيد الدار كلمة الصفح الجميل ...
وما كاد ينطق بها ، حتى تاب إليه وعبه ، فراجع نفسه وكأنه
يلتمس المنفذ إلى استدراك ما أفلت ، ولكن الشيخ أخذ عليه
الطريق ، مخاطبا الطاهي بقوله :

ألم أقل لك إن سيدنا البك رجل لا يحمل في قلبه حقدا ولا
حفيظة ، وإنه أسرع إلى العفو وأقرب إلى الرحمة ؟ قم فاضطلع
بعملك ، وأقم الدليل على أنك أهل لهذا الرضا الكريم ...

وأني ، محمد أفندي ، نفسه يصدر أو امره إلى الطاهي . فيتأقها .
الرجل في أدب وإذعان ، بيد أن هذا الإذعان وذلك الأدب لم
يدوما طويلا ؛ فقد عاودت الرجل صلابة نفسه ، وحدة طبعه ،
وشدة مراسه ، حتى إن رب الدار آلى على نفسه ألا يقرب
المطهي ، لينجو من سلاطة ذلك الطاهي الحسرون ...

وطغت على الدار تلك الروح السابقة ، روح التزمت
والفوضى ، حيث لا راحة مكفولة ، ولا أنس شائع ، فكان
محمد أفندي ، يقطع نهاره الممدود مملولا في مستشرف الدار ...
وبما جاء ضغثا على إنبالة أن الشيخ عزبان ، قطع عن الدار
زوراته . وأتاب عنه في تلاوة القرآن غلاما زرى الهينة : كأنما
هو صعلوك شريد ... فكان يرفع عقيقته بالقراءة ، ويهز قامته
هزة عنيفة ؛ كأنه دُمية شائمة ذات لواب . لا تبدأ لها حركة ،
فيضيق به رب الدار ، وتثور في نفسه مشاعر الاشتزاز ...

وإذا أقبل الطعام مدة الغلام إليه عيذه الضاريتين يرقب يد
محمد أفندي ، وهي تعالج اللقمة حتى تسلمها إلى فمه ، وكأن هذا
الغلام يعد على رب الدار ما يزدرد من لُقمات ...

وياويل ، محمد أفندي ، من الليل ...
 إنه يهبط حاملا إليه ضروب الأرق والوحشة والاكتئاب ...
 وعشا كان الرجل يحاول التزلف إلى النوم بمختلف الوسائل ،
 وطالما طرقة طيف الفتاة في غدو ورواح ، وعلى حياها حزن
 وتحسر ؛ وكأنما هي تستغيث به ، طالبة منه العون !
 إنها تتضرع إليه أن ينجيها من ذلك الزوج الذي فرضه جدتها
 عليها فرضا ، وأرادها عليه حتما ...
 ولكن أنى السبيل إلى النجاة ؟
 كيف له أن يبلغها ما تصبو إليه ؟
 نحن في الريف ، لا خيرة للفتاة في من يكون زوجها ...
 لو تمتعت وتأبت ، لعدت ذلك عليها عارا أى عار ...
 لا مصير لها إلا هذا المصير ، ولا سبيل إلى دفع ذلك المقدور ...
 ستتزوج لا محالة ، وإن لم تحمل زوجها أثارة من حب ...
 لقد وهبت قلبها رجلا آخر ، رجلا تراه مصروفا عنها ، غير
 معنى بأمرها ...
 ما أقسى قلبه ، وما أغلظ كبده !

وفزعت يد محمد أفندى ، إلى مروحته عن كسب ، فتناوبها
نار الأعصاب ، يروح بها وجهه المتضرم ، ويلتمس منها مدداً
لأنفاسه المختلفة ، ولكنه لم يملك أن يصرف عن خادله التفكير
في شأن هذه الفتاة ...

لن تحبّ الفتاة زوجها ... وكيف يستطيع ذلك القروى
الأغلف إسعادها ، بعد أن عاشت في كنف محمد أفندى ، فترة ،
فاقتبست منه شمائل الحضّر ، وألفت منه رقة المعاملة وأدب
المعاشرة ، ولين الحديث ؟

مظلومة هذه الفتاة التي أقصيت عن هذه الحياة الحضّرية ،
وقُذِفَ بها في جحيم لا نطاقاً

وصابراً محمد أفندى ، هذه العيشة التي يعيشها أسبوعاً وبعض

أسبوع ...

أحكم عليه القضاء بأن يظل بين هذا الغلام الفج ، وذلك
الطاهى العطب : يزججه الأول بصوته المسكر ، ونظراته المنهومة ،
ويملك عليه الآخر زمام مطهرة ، ويغدو حاكماً بأمره فيه ...

وفي بخوة يوم شوهد رب الدار يتركها بعد خطوة مديانة
بالحلاز . ذلك الزائر الذي كان قد انقطع عن الدار منذ فترة ...
خرج محمد أفندي ، في حلة قشبية ، مفتول الشارب ،
مُطَرَّي الشعر ، تتخطر في يده عصا مفصّضة ...

وقادته خطاه إلى كوخ الشيخ عزبان ، فألقاه على المصطبة
متربع الجاسة . فما إن أخذته عين الشيخ حتى انفتل قائماً ، يجاهد
في لمّ شعثه ، وصلب عوده ، وما أسرع أن فاض لسانه بالترحيب
المكرر :

أهلا وسهلا ... أشرقت الأنوار ...

وانهمك على المصطبة ينظفها ويسوى عليها الحصير ، ويمهد
بجلسها للزائر الأعز ...

ثم انبرى يصفق عاتحا :

قهوة يا بنت اسيدنا البك . .

وما إن استقر المقام ، بمحمد أفندي ، حتى استشعر العزة
والرفعة ، فجلس جلسة الإمارة ، وقال له الشيخ عزبان ، :
كيف الحال ؟ ...

— ٥٨ —

— أى حال ؟ لقد كنت مُوشكاً أن أموت !
 — تموت ؟ كيف ؟ سلامك !
 — سَلمك الله ... لولا لطف الله لمكنت الآن معزياً فى !
 — لقد أحسستُ أنك ستتعب ...
 — قلب المؤمن دليله يا سيدنا البك ...
 — قلت أزوره لأعلمن ...
 — أكرم الله مقامك . ووفر طمأنينتك ...
 وتلفتت د محمد أفندى ، حوله ، يرقب الآكواخ والمسالك ،
 ثم قال :

ما أحوج هذه القرية إلى جهاد موصول لإصلاحها وتنظيمها...
 من أجل هذا تركت القاهرة ، ، وآثرت المقام هنا... إن مد الله
 فى عمرنا بذلنا ما فى وسعنا للتمير والإصلاح !
 — كلنا ندرك فضلك ، ونشكر معروفك ...
 وانقضى وقت يتبادل فيه الرجلان حديث القرية ، وما تتطلب
 من أسباب النهوض ..

وأُسفر يباب الدار ضحياً لمُأخ فوآح بزيتته وعطره... يحيا
 الفتاة تحمل صينية القهوة ، فانتظمت د محمد أفندى ، اختلاجة طالت
 به ، فدنس منه الفتاة خافضة البصر ، ابتدرته تحييه ، وتمد

— ٥٩ —

يدها ، فترك لها يده تلتصمها ، وهمهم :

كيف أنتِ ؟ ...

فأجابته في صوت متلعثم :

ما دمت بخير فالحمد لله على كل حال ...

وما لبثت أن رجعت أدراجها إلى الدار ..

وأظل المصطبة صمت ثقيل ، وكان الجدُّ ينكُثُ الأرض

بعود يابس بين أنامله ...

وأراد د محمد أفندي ، أن يستنجد بمشروعات الإصلاح

للقرية انكشف عن المصطبة حُجب الصمت ، ولم تنجده بشيء ،

فأخذ يسغل ويتخجج .

وأخيراً قال الشيخ حازم اللهجة ، وما زال يعبث بالعود :

غداً عقد زواج الننت ...

فأخذ د محمد أفندي ، بما سمع ، وجميعهم في دهشة :

غداً ؟ ... غداً ؟ ...

-- خير البر عاجله يا سيدنا البك ...

فقال د محمد أفندي ، في سهوم :

حقاً ، خير البر عاجله ...

ثم تقلب في جلسته وقتاً . وقال :

ج ٦٠ ..

... كنت منذ أن البنت غير راضية عن هذا الزواج...
... ليس ذلك بهم... راضية أو غير راضية !
... يا الشيخ برأسه ، وسرح يبصره في الأفق ، ثم قال كأنما

...
... أنا من ناحية البنت فإن دمعتها لم ترقاً منذ نبتت ففكرة
الزواج ... !
... حرام عليك ! ...

... هذا هو المقسوم ...
وتكاثرت حركات محمد أفندي ، فمرة يُمرّ يده على جبهته ،
وحيثاً يهرش رأسه ، وتارة يهزّ قدمه . وطوراً تنبعث من صدره
زمزمة وهدير ...

ويعالج أن ينبس بقول ، فلا ينفتح له شيء ...
وطال الصمت الجيَّاش ، وكان الجدمهتيا يواصل العبث بالعود
ووجد محمد أفندي ، نفسه يعتدل في جلسته ، ويسدد إلى
الشيخ نظره ، وقد انفكت عقدة لسانه ، فقال متدفعاً :

صل على النبي ...
فرفع الشيخ هامته ، متوقفاً أمراً جلالاً ، وقال :
اللهم صل عليه .

... ١١ ...

... وأيضاً رسول علي النبي .

... الله ، صلواته وسلامه عليك يا نبي !

... أنا ، أنا ، أنا ، إليك ، إليك ، إليك ...

وترامى الشيخ فى دهشة معنوية ، وهو يقول :

حبيبتي أنا ؟

... لقد سمعت ما أقول ... أنا مخاطب إليك فتاتك ...

فاندفع الشيخ يدعك يديه إحداهما بالآخرى ، وهمهم وفد تحنى

رأسه على صدره :

وهل نحن نسبح إلى هذا المنام ؟

... لقد استخرت الله ، وعليه الاتكال ...

٢٠

لم تتوارَد أيام ، حتى كانت الفتاة زوجاً ، لمحمد أفندي ،

تمسرح داره ...

وانقضت الفترة الأولى كأنها حلم جميل ينعم به الرجل

ليل نهار ...

لقد ألقي نفسه عروساً لفتاة غضة تزويه بشبابها النضر ، وتنعشه

بما تشيعه من بهجة ومِراح وتعره بما تبديه من ملاينة وملاطفة

وطوع ، حتى إنها لم تكن تستنكف أن تتمن بعض ما كانت تقوم به قبلاً في خدمة الدار ...

فضاق محمد أفندي ، ذرعاً بذلك التواضع . وأصدر إليها أمره أن تكف عن هذا الامتحان ... ؟

كيف تبيح زوجة رب الدار لنفسها أن تبذل كرامتها وكرامته بمزاولة الوضيع من شئون الخدمة ؟ ...

آن لها أن ترفع عن ذلك كله ، وأن تكون سيدة الدار المخدومة ، وليس ذلك إلا بعض الجزاء لتلك التي أخلصت لرجلها ، ووهبت قلبها الفتى النقي ...

لقد مست الحاجة إلى خادم يقوم على مرافق الدار ، فوقع الاختيار على الغلام ، تلك الدمية اللولبية المسكرة الصوت ...
فحمل الغلام أعباء الخدمة المنزلية ، متوجة بهذه الأوامر والنواهي يصها على رأسه رب الدار في الغدوات والروضات ...

وعرض الشيخ عزبان ، نفسه ليستأنف تلاوة القرآن في مستشرف الدار كل صباح ، فتصدى له محمد أفندي ، يأي عليه القيام بهذا الأمر ...

كيف يسوغ لرب الدار أن يدع صهره يعتمد الأرض ، ويمارس شأنًا جرى العرف باتخاذ مورده كسب ... ؟

« للشيخ عزبان ، أن يقرأ ما شاء كما شاء ... فأما الراتب
اليومي المعين ، فيجب أن يُوكَلَّ إلى قارى آخر لقاء الأجر
المع ... اوم ... »

وبعد جدال ونقاش استقر رأى على أن يتولى الغلام تلاوة
ما تيسر من القرآن في الضحوات ...

وهكذا اجتمع على كتف الغلام ما كان يقوم به الشيخ من
تلاوة ، وما كانت تقوم به حفيدته من خدمات ...

وألف « محمد أفندى ، صوت الغلام ، فلم يعد يتبرم به ،
وكثيراً ما كان يحلوه وهو على المائدة يصيب طءاهه أن يستدعى
الغلام ، فما إن يلبى دعوته ، حتى يقذف له اقيمت وأشتاتا من
لحم ، فيلقفها الغلام خفيف الحركة ، كأنه قط منوم ، فيبعث
الرجل ضحكاته رنانة من أعماق قلبه ، ثم لا يلبث أن يعاجله بفيض
من الشتائم ومرذول النعوت ، فيتلقاها الغلام داعياً لرب الدار
بطول العمر ... »

وعرف الشيخ طريقه إلى مخزن المشونة ، فاحتله كسابق عهده ،
واتخذ منه مصلاه ومرقده وملاذ راحته الأمين ... وقد جاهر
« محمد أفندى ، بأنه إنما يؤثر المقام في هذا المكان على تقارب
أرجائه ، حتى لا يكون في وجوده بالدار ما يضيق العروسين العزيزين ... »

وبدت من الشيخ سمية في رعاية مصلحة الدار وبشؤونها ،
 وبمرفور عنايته ذلك الطاهي المبرون ... يكسب بها ،
 ترويضه على طاعة رب الدار والإذعان لأوامره .. على أن
 ذلك لم يمنع أن يخلو الشيخ إلى الطاهي خلوات أنيسة ، يتنارسان
 فيها الحديث في همس وسرار ، دون أن تنالها الاسماع والعيون ...
 طابت الحياة « محمد أفندي » في ظل تلك الزوجية الجديدة ،
 ولكنه شعر بوطأة النفقات ، فلم يلقِ لذلك بالأول الامر ،
 وكثيراً ما حدث نفسه بأن الحياة إنفاق ، وأن للنهاة ثمنها ، وأنه
 ما دام كل درهم لا يذهب باطلا فلا أسف عليه ...

وماذا كان يفعل « محمد أفندي » حين ترغب إليه زوجه آنا
 بعد آن في ملبس من الحرير ، وحيناً بعد حين في حلية من
 الذهب ؟ .. أليس من حقها أن تظهر بالمظهر الملائم لزوج له
 مقام كريم ، ومكانة اجتماعية ملحوظة ؟ ...
 أو ليس من واجبه هو أيضاً أن يرفعها إلى المستوى اللائق
 بمن تصبح له زوجاً ؟ ...

وتجلت سيما الرفاهية على « الشيخ بزبان » ، فأزهرت عمامته ،

مليلة الطليات ، وتضرجت لحيته بصبغة الحناء ، وخبّ في قبائه
القشيب ، وجبته الفضفاضة مهدّلة الكمين ...

وأدرك التغير صوته ، فانقلب هزاله وخُفّفوته قوة وجهارة ،
وأصبح يصلصل في أنحاء الدار صليل الجرس الرنان ...

وكان « محمد أفندي » يسمعه ، فلا يملك إلا أن يرضى بتلك
الحركة الدائبة لمصلحة داره ، ورعاية شئونه . ولكن هذا الصوت
المجلجل على الرغم من ذلك كله ينفذ إلى أعماق قلبه . يحمل إليها
الحشية والرّمب ...

وألف الشيخ أن ينام إلى ارتفاع الضحى ، فإذا جاء ذكر
هذه النومة الممدودة في عُرُض حديثه لأهل الدار . انبرى الشيخ
يتحدث عن نهجته وقَطْعِهِ الليلَ تلاوة وتسييحاً وصلاة ، فما
يَظَنُّهُمْ النوم إلا بُعِيدَ الفجر ... ومن ثمّ أصدر أمره علناً إلى
الطاهى وإلى الغلام ألا يزججاه من نومة الغداة ، وألا يقلقا
راحته بصنجة أو صياح ...

وفي ضحوة يوم اشتبك الغلام والطاهى في حوار . فما كاد
يعلو صوتهما حتى افتتح باب مخزن المئونة ، وبدأ الشيخ بحمرّ
الوجه متمسك العين ، رثاب الخطأ ، وفي يمينه عصا خيزرانة ...
وسرعان ما صبّ جام غضبه على الغلام ، منكرأ عليه إفلاق

وباسته وإثارته من نومه ، وما هي إلا أن أخذت ته ، وانها
تلي بوانيه من بيتنا بالنصا ، دون إشفاق ...

وبلغت ، الجارية سمع رب الدار ، فأقبل يستملح الأمر ، فراه
ما شهد من صولة الشيخ وضراوته ... هذه أصابعه تشبهت برتبة
الغلام ، وتلك يده تعلو وتهطل بالنصا ؛ كأنما يحركها عفرية من
البلن ، وهاتان عيناه تحمضان ويتوقد فيهما الشر ... فأما الغلام
فكأما سود جاجة بين يدي ذابحها ؛ لا تملك إلا الحشرة والآنين ...
راى محمد أفندي ، ذلك ، فأدركته بالغلام شفقة ، بيد أنه
لم يستطع أن يقول كلمة ، وألنى قدميه تراجعا ، وصادفته زوجته
في طريقه ، فهمم يقول :

الولد جدير بالعقاب ... للدار حرمة يجب أن تُرعى ...
ولوحظ على رب الدار أنه يطيل مكوثه في الفراش صباحاً غير
نائم ، فأيرى السرير إلا إن جلجل صوت الشيخ هنا وهناك ...
فيم التكير باليقظة ؟ أليس لجسده عليه حقّ الراحة قبل
كل شيء ؟

على أنه ما يكاد يطرق سمعه صوت الشيخ ، حتى ينفذ من
سريره كأنما أنشط من عقال ، وفك من إसार ... فيبرز إلى
مستشف الدار ، مسرّيا عن نفسه المألوف ..

وأذنت الفتاة لنفسها أن تتدل على زوجها وتتجنى ، ولم تلبث أن تغالت في دلاها وتجنيا ، فكثيرا ما جاءت تجلس على ركبتيه تداعب خده بيدها الرخصة ، وإذا بأصابعها تندس إلى صدره ، فتغترف منه النقود ... ثم تقفز عن حجره متضاحكة ، فإن غضب الرجل ورغب إليها في رد ما غصبته إياه ، علت بصوتها قائلة :

أرني براعتك ... إن ظلني كان لك ما شئت ...
فيحاول اللحاق بها ، فزاوغه وتداوره ، حتى يأخذ منه الجهد كل ما أخذ ؛ ويرتمي على المقعد منتفخ الأوداج ، مكروب الأنفاس ، يجمجم حائقاً ، فتتظاهر الفتاة بالندم والتحسّر ، وهي تقول :
أحسبتني طامعة في أخذ مالك ؟ إنك لاتفهم المداعبة !
وما هي إلا أن تواجهه كالغضبي ، وهي تقول :
خذ نقودك . ولا تحنق علي !

ثم تتداني منه . وهي تنفض من طرفها ، وتقلص من قسماها ، فإذا جاورة جلست صامتة باديا عليها الجدة والاغتمام ...
فيفكر محمد أفندي ، في أمر الزوجة هنيهة ، ثم يشعر بما

عليه من تسبعة فيما كان ...

لأنه المساءوم ...

لقد انقلبت الفرحه بسوء تصرفه ترحه ، ولقد تغير الموقف
من ملاطفة ومداعبة إلى مضايقة وانكسار خاطر ...

إنها فتاة طروب لروب ، يجب أن تساس بغير هذا العنف .
وأن تحاسب على غير هذا النحو ...

لقد أفسد الموقف ، وعليه إصلاحه !

وفيما هو ساجح في مراجعة نفسه وتأنيبها ، تمد الزوجة يدها
بالنقود إليه في صلابة وتجهم ، قائلة :

إليك نقودك التي عكرت علينا صفو المجلس ..

فيرد الرجل يدها في رفق ، وهو يقول :

لبست المسألة مسألة نقود ، أبقها معك ... أتخشين أني

أضن عليك ؟ ... لقد أخطأت التقدير .. !

فلا تكاد الزوجة تسمع ذلك منه ، حتى تثب إلى شقة تهرده

بالقبلات والمعاينات . وهي تقول :

لا حرمي الله ذرفلك وكرمك ، يا نور عيني وبهجة فؤادي ...

كانت أمثال هذه المواقف تتكرر أشكالا وألوانا . فتتجشم لها

الرجل من النفقة ما لا طاقة له به ... ولكمه يُلقي نفسه منساقاً ،

... ٢٢٠

٢٢٠ محمد أفندي إلى الشيخ .

٢٢١

وفاة سيدي محمد الشيخ تخرج الدار ، وتو داد سلهوا وعشرا
يوماً بعد يوم ، وربما اتفق ، لعمري أفندي ، أن يسأل الشيخ في
محادثة ، سلاية :

ما الحسب ؟

فيقف الشيخ أمامه سامق الهامة ، مجتئح الذراعين ، كأنه
تسر غفوب ، ويقول :

يا سيدنا البك ... لقد خربت الذمم ، وفسد الناس ، فلم
يجودوا ينشرون الله ... إن حوالك ذئابا لا يتورعون عن النهب
والافتراس ...

وعلى الرغم من هذا الدافع الحار ، كان محمد أفندي ، يحس
أن يحزن المثونة قد نزعته منه البركة ، فهو بفضل رقابة شيخه
الصالح ينهار ويتداعى تلى نحو يشير الدهشة والعجب ، حتى كن
الأرائب كانت يتناقص أوضع تناقص ، على الرغم من تغذيته
كومتاً بوارد جديد ...

وأسفر يوم عرف فيه « محمد أفندي » أن زوجه تستقبل بين
 جنديها وليًا لعهد... فمأجنته فرحة وإشراق... ثمّة وليد سيدنا الله
 بعد شهر ... وليد يضاف اسمه إلى القائمة السابقة الحافظة بالمبين
 والبنات ... ولكن ما أثبت الفرق بين اللقيف القديم والولد
 الجديد... أولئك لا صلة بينهم وبينه، فكانهم ليسوا منه .. أما
 هذا الجديد المنشود فله وضع غير ذلك الوضع ... إنه يتقدم
 كالزهرة الصغيرة يوضع عطرها من حوله ، فيملأ حياته من بهجة
 وإيناس... إنه يتقدم ليتوّج الدار ، مثيرا فيها النشاط والمراح...
 إنه ابنه الوحيد الذي يعرفه حق المعرفة ، ويتمتع به بجدّ التمتع ...
 إنه ابنه الوحيد الذي يفرغ لانشغاله تنشئة طيبة وقويّ هواه ...
 إنه ابنه الوحيد الذي هو جدير بالانتساب إليه ا

وجعلت الفتاة ترّكن إلى فراشها متكاسلة ، خالية إلى جنينها ،
 توفر له الراحة والاطمئنان ...

ومرة أقبل « محمد أفندي » على زوجه ، مستلقية على فراشها
 تتظاهر بالتعب والإعياء ، فانحنى على محيّاها يودعه قبلة ملاطفة
 وإقرار بالجميل ، فإذا هي تزجّيه عنها في جفوة وضيق ... فسحب

الرجل بما أبدته ، وقال مبهوراً :

أتذكر حين أن أقبلك ؟

— أنفاسي محتبة ، وأنفاسك تيسل من التوابل ما يشي

نفسي ...

فابتعد الرجل عنها قليلا ، واتخذ مجلسه في استنكار وضيق ...

وفي هذه اللحظة قدّم الشيخ وقد سمع ختام الحديث ، فانهاه

على ابنته تأنيباً وتذيراً ، وجلس بجانب « محمد أفندي » يُطَيِّب

خاطره ويترضاه ..

ولم ينقض عجب « محمد أفندي » حين قدّم له عداؤه في

اليوم التالي ، فعرف أن الطعام قد خلا من التوابل ... فلما سأل

الطاهي جليّة الأمر ، أجابه من فوره :

هذا أمر سيدنا الشيخ ...

وهرعَ الرجل يدرس هذه المشكلة التي تمس جوهر معاشه ،

فقر قراره على أن يناقش الشيخ في أمره مهما يكن من شيء ...

فتشجع مقتحماً مخزن المثونة . قائلاً لشيخه :

أحق أنك أمرت بإخلاء الطعام من التوابل ؟

— نعم ... أنا يا ابني ... أنا الذي طلبت من الطاهي أن

يفعل ذلك ...

نطق الشيخ بهذه الكلمات في صوت ابن المكاسر ، رقيق النغم . يسيل من علوية وصفاء ... فسأله « محمد أفندي » :
ولم هذا ؟

— من أجل صحتك ... كلنا نهم بصحتك الغالية ... بهذا في سبيلها كل شيء ... ما أضّر التوابل بالصحة ... هكذا أكدت « تذكرة داود » ... يجب أن تكون بصحتك مغنّياً .
— ولكن ليس في صحتي ما أخشاه .

— إذا أثقلت على نفسك بهذه التوابل عاجلتك الشيخوخة ،
ثم تدم ولات ساعة مندم !

— أيّ كلام هذا يا سيدنا الشيخ ١٩
هذه نصيحتي خالصة إليك ... إن اتبعها . فيها ... وإلا فاصنع ما شئت ...

وكان الشيخ ينطق جملته الأخيرة في لهجة يشوبها التهديد والوعيد ...

ترك « محمد أفندي » ، وكر الشيخ يكاد يتميز غيظاً ، فنى عزمه على أن يقصد توتاً إلى المطهى ، لكي يبلغ الطاهى نقضه لذلك الأمر الذى صدر إليه بإخلاء الطعام من التوابل ... ولكنه ألنى قدميه — دون وعى — تقودانه إلى مُستشفٍ

— ٧٣ —

الدار ، فرمى بجسده على المقعد ، يسرح بهصره في الأفق ، وجهه
يتلمب ...

٢٥

وعلى توارُد الأيام ازدادت الزوجة من تراخ وتكاسل ...
لا تكاد تزول عن فراشها إلا عند الضرورة القصوى ، فهي
منطوية على جنبها انطواء الشيخ على كنزه الثمين يخشى انفلاته ،
ويتوقى الندم على ضياعه ...

وأحسن ، محمد أفندي ، أنه كلما دنا منها عملت على إقصائه
مستلة عليه بألوان التعللات ...

وغربت عليه شمس يوم رأى فيه نفسه قد أقصت عن حجرة
الزوجة إلى البهو ، حيث هي له فيه مبيت . .

وذات يوم نادى الغلام صبحا لبعض شأنه ، فلباه الطاهي
خبراً إياه بأن الغلام قد أخلى البارحة من خدمة الدار ، فسأله
محمد أفندي ، :

من أخرجه ؟

— سيدنا الشيخ .

— لم ؟

— لا أدري .. هذا أمر سيدنا الشيخ ..
 فاستجمع محمد أفندي ، واستعصم واستعدان بالقة ... وجرأ
 تقديمه إلى وكر الشيخ يفتحه في شأن الغلام فوجد الشيخ منكبا
 على غرارة الصابون يعد ويحسب ، فسأله :
 ما حكاية الولد ؟
 فأجابه الشيخ ، وهو ماضٍ في عده وحسابه :
 لقد طردته .. إنه غلام كسلان صخّاب ، منهوم ...
 ورفع رأسه عن الغرارة ، فبدا مغضن الجبين ، كالح الوجه ...
 واستأنف قائلاً :
 إنه كالذئب الجائع ... لو بقي لخربت الدار ... وفي طرده
 اقتصاد لمرتبته الذي يستولى عليه بلا جدوى ...
 ثم علا بصوته الأجش قائلاً :
 يا سيدنا البك ، الاقتصاد لازم ... يجب أن ندبر أمور
 الحياة ، وإلا واجهنا المستقبل بأيام عابسة ...
 فهمهم محمد أفندي ، قائلاً :
 ولكن الغلام كان يتولى شئوني ...
 — الطاهي يستطيع القيام بما تأمره به ...
 — إن الطاهي أعجز من أن يتم عمله الموكول إليه ...

-- ٦٥ --

فازداد وجه الشيخ جهامة وصلابة ، وقال محتد البركات :
لقد فعلت ما رأيته الأصح ، متوخيأ خيرك ، فافعل أنت
ما بدا لك

وانكفأ على شرارة الصابون ، يستأنف العد والـ حساب ، وهو
يجمعهم شغالبا ، محمد أفندي ، :

إذا شئت ، إرجاع الغلام إلى خدمتك ، فافعل ... ولكن
لا تأني إذا جرى ما لا تحمد عقباه ... البيت بيتك ، والـ فيه
معلق التصرف ... فأمر بما ترى ...

وخرج محمد أفندي ، يعمل في سمعه تفويض الشيخ إياه أن
يفعل ما يريد ، وتصريحه له بأنه سيد البيت ، وأنه صاحب الأمر
فيه ... ولكنه لم يجد سبيلا إلى استخدام ذلك التفويض وتحقيق
تلك الإمرة ، فلاذ بمستشرق الدار يلتمس فيه تفريحا لما يجد في
نفسه من كربة وضيق ...

وما إن استقر على معقده قليلا حتى أدركه الظلم ، فصفق ،
ثم صاح :

كوب ماء ... كوب ماء ...

فلم يستجب له أحد .

فكرر الصيحة ، فلم تثر له غلة ، فاضطر أن ينهض . ومشي

إلى عراشي الماء وتوجد سبينة القمل ، فتناول منها قلة رشم أن يكرج ،
فإذا هي فارغة ، وقد يسه إلى الثانية فإذا هي أفرغ من الأولى ،
فإذا الثالثة فوجدتها أعطش منه ، فارتجف غيثاً وما أسرع أن
تسبح بالثقة القمل إلى الأرض . فتكسرت وركن لا تكسار حاصرت
عائتي أرجاء الدار ، فسمعت الزوجة صائحة تقول :

ما هذا الإزعاج للراحة ؟ ... ألا نستطيع أن نهدأ لحظة في
هذا البيت ؟

وما كادت تتم قولها ، حتى هدرَ الشيخ يقول :

ماذا ؟ أي شيء انكسر ؟

فسرت في دم محمد أفندي ، خشية ، ورمق عظام القملة في
حيرة وقلق ، فهاود الشيخ هديره أشد عنفاً :

ماذا ؟ أي شيء انكسر ؟ ...

فانبعث صوت محمد أفندي ، هزىلاً متخاذلاً يقول :

لا شيء .. لا شيء .. قلة سقطت ..

فهمهم الشيخ :

لا حول ولا قوة إلا بالله !

وتزحزح محمد أفندي ، عن مرافق الماء ، مؤخراً إرواء

ظلمته إلى حين ...

وسرمان ما نكأرت شهوات الوحم عند الزوجة . فلما في
كل ساعة مطلب جديد ، ورغبة تنفيس في تأويلها ما وسها الفنان .
فإن تراخى « محمد أفندي » في الاستجابة لتلك الشهوات ،
أو استسهل في تحقيق هذه الرغبات ، بادرت الزوجة بإلقاء التبعة
في عنقه إن أصيب وليده بغير . أو لحقه مكروه

وكثيراً ما عانى « محمد أفندي » ألواناً من المتاعب ، وجساماً
من النفقات . في سبيل مطالب الزوجة الوحمى ... فن ركوب
الدواب ، ومن احتمال لوقعة الخمر في الظهيرة ، ومن تنقل بين
الأسواق والمدن . طالبا لها هو عزيز المال من فاكهة ومتاع .
وتأنت الزوجة منذ لزمته فراشها ، يُحمل إليها الطعام في
مرقد ها ، وكان الغلام تولى ذلك قبل إقصائه ، فتولاه الطامى من
بعده ، فأما « محمد أفندي » فطعامه يُحمل إليه في صينية خاصة ،
حيث يقيم في مستشرق الدار ..

وبينما كان « محمد أفندي » يوماً يتلهب انتظاراً لبعده ، إذ
أقبل الطامى غاوى اليدين ، يقول :
أسمع ياسيدنا البك بالحضور إلى المطبخ ...؟

- لماذا ؟

- لتحمل صينية « الست » إليها ...

فحملق الرجل في وجه طاهيه وقال :

أنا أحمل الصينية ؟ ... أجمنون أنت ؟

- لست ، بجمنون ياسيدنا البك ...

فصاح ، محمد أفندى ، :

أوضح يا رجل .

فقال الطاهي في غير مبالاة :

هذه أوامر سيدنا الشيخ ...

فهبّ محمد أفندى ، من فوره ، وقد انتفش شاربه ، ودمدم

قائلا :

أوامر سيدنا الشيخ ؟ سأرى ماهي أوامر سيدنا الشيخ هذه ؟

وطاوعته رجلاه على أن يقتحم الوكر الحصين ، فألقى شيخه

جالسا متشمرا يكيل السمن في نشاط واهتمام . فقال له متهدج

الصوت :

أحق أنك أمرت بأن أحمل الصينية إلى البنت ؟

فرفع إليه الشيخ عينه قائلا في صوت متطامن :

هذا صحيح يا بني ... إذا كان الأمر يعنايقلك فلا تفعل ...

أيسع أن أكافئ مثل هذا العمل ؟ اليس في المنزل من
يتقدم ؟ ...

فأبواب الشيخ في لمحشة المتلازمة :
إن أردت الحق فلا شام في الدار ...
— و الداعى ؟

— الداعى ؟ ... الداعى ! ...
وهو الشيخ رأسه قتر ، وهو يُعيط عن يديه ما تعلق بها من
السم . و قال :

أليق أن يقتحم رجل أجنبي فراش زوجك وهي في حالة
حمل ؟ إنى أستقد أن نفسك الأبيّة لا تقبل ذلك ...
فبرغمت و محمد أنندى ، بهذه الإثارة ، وصمت هنيهة ، وهو
يهرش رأسه ، وهينم .

على أية حال يجب أن تُجنىر خادمة ...
... فلنبحر عن خادمة ... أما الآن ...
... الآن ؟ ... الآن ؟ ..

— إذا رأيت أن أقوم أنا بحمل الصينية إليها ، فإنى أفعل عن
طية خاطر ...

ونفض الشيخ في جهد ، وما لبك أن رُئي وقد عاجله سعال

«تابع ، يشقق حلقة ويهز أركانه ، ثم إذا هو يترنح رويدا ،
ويوشك أن ينقض ، فأسرع إليه الطاهي يحفظه من السقوط ،
ويقول له :

يا سيدنا الشيخ ... أرح نفسك ... إنك تفضني صحتك
في خدمة الدار ...

وما زال الطاهي بالشيخ يسنده ويعني به ، حتى تراءى بأنه قد
أفاق وعاوده التمالك ...
وسمع بهمهم :

رحمة الله على أيام زمان . أيام المروءة والإخلاص
وتواضع النفوس ...

ثم التفت إلى الطاهي : كأنما يوجه إليه قوله :
رضى الله عنك يا عمر ، يا أمير المؤمنين ! ... لم تستكف أن
تطهو ويدك الطعام لامرأة ...
تم مص شفتيه في تحسر ، وسرح ببصره طويلا في الأفق ،
وقال في ترتيل :

« إيا المؤمنون إخوة ... » .. وتعاونوا على البر والتقوى ...
صدق الله العظيم ...

وخلل لحيته بأصابعه ، ثم استأنف قائلا :

المؤمن للمؤمن كالبنیان يَشُدُّ بعضه بعضاً ... صدق رسول الله
 في حديثه الشريف !
 وتهاطلت على لسان الشيخ آيات وأحاديث وحكم تحضّ على
 التعاون بين الأزواج ، وتُشيد بالتواضع وخفض الجناح ...
 وكان كلما استرسل في ترتيله ، اشتدّ صوته ، واعتدلت قامته ،
 فما إن قارب الفراغ من إلقائه ، حتى كانت أرجاء الحجرة تتجاوب
 فيها أصداء: كأنها هزيم الرعود، ينذر غلاظ القلوب المتكبرين بأنكال
 وجحيم ، وطعام ذى غُصّة وعذاب أليم !
 وارتدّ محمد أفندي ، عن الحجرة ، بجر جر خطاه ، مطأطؤه
 الهامة ، يحسّ " أنقال الخطايا تراكم على مَنْكِبَيْهِ ...
 وساقته رجلاه إلى المطهى ...

وانتظر الرجل أن يظهر للخادمة أثر في المنزل ، وطال به
 الانتظار . .
 ولم يكن بُد من أن يضطلع بشئون الزوجة ، لا يقتصر في
 خدمتها على حمل الطعام إليها ، وإنما يلي من أمورها كل ما تمسّ
 حاجتها إليه ...

— ٨٢ —

وكان كلما غمره شعور بالفضاضة من هذا الامتحان ، صاحخت
أذنيه أصداءً مطولات الشيخ في الترهيب من التكبر ، ومجانبة
التواضع ، والتقصير في عون الأقربين ... فيما رس عمله بجتهداً
في تسوينه لنفسه ، متكلفاً الرضا والارتياح .

بيد أنه على الرغم من ذلك ؛ كانت تجوزُ به لحظاتُ هم وضيق ؛
إذ ثور نوازعه ، فيتسخط ويتشكى ، وتملأ النعمة ما بين 'جنيه' ،
ويتفق أن يمرّ به الشيخ في مثل هذه الحال ، فيقف عنده متفرساً
فيه ، قائلاً :

أكبر ظنى أنك غير مستريح إلى مشاركتنا في بعض واجبات
المنزل . .

فيرفع محمد أفندي ، رأسه إليه ، مجيباً في صوت وسنان :
لا يخطرُ لي هذا الأمر يال ...

فيتداني منه الشيخ مُرَبَّتاً كتفه ، يقول :

نحن جميعاً في خدمة القادم الجديد .. ولذك العزيز ... كل
صعب في سبيل خدمته يهون !

وتكاثرت مطالب الزوجة ، ولم تعد هسذه المطالب تدللاً
وملاطفة كما كانت من قبل ، وإنما أصبحت باباً من الحقوق المشروعة
ليس منه مناص ...

هنالك وليد يوشك أن يهل على الدار بطلعته الوضيئة ... وإن
لهذا الوليد لحقوا فأوجب أن تُرعى، ومطالب لا بد أن تُستوفى ...
ماذا في أن تطلب الزوجة صنوفاً من الثياب والامتعة لذلك الوليد؟
ماذا في أن تطلب الزوجة إنشاء حظيرة جديدة للدجاج تنافس
كنّ الأرانب، حتى تستطيع هذه الحظيرة أن تُمدّ الأم
النفساء بما يلزم لها من الطعام ؟ ...

ماذا في أن تطلب الزوجة جماعاً من الكباش لإحياء يوم
السبوع، وللوفاء بالنذور لأولياء الله، حمداً له سبحانه على
ما أنعم وتفضل ؟ ...

ماذا في أن تطلب الزوجة كل هذا وغير هذا كله من مطالب
ورغاب ؟ ...

ولقد انتهى الأمر بمحمد أفندي، تحت وطأة هذه الأعباء
إلى أنه كان إذا ذُكر أمامه حديث الوليد الجديد، خُيلَ إليه
أنه مهدد بمهبط شيطان يُنشب أظافره في عنقه !

وكثيراً ما انفراد محمد أفندي بنفسه في مستشفاه، يعرض
تلك الحقيبة الرقيقة من حياته : ماذا ربح منها ؟ وماذا خسر ؟
ولا يلبث أن يعطرب خياله، وتغيم أفكاره، فيظلم أمامه
وجه الرأي، لا يدرى أغاثم هو أم غارم ؟ وشقي هو أم سعيد ؟

وفيا هو يوماً يصطلي حر تلك الهواجس والهموم ، إذ أقبل
الشيخ مقتحماً عليه خلوته ، وهو مترفع الأعطاف ، يتطلق محياً
في زهو ... وقال له :

أُبشر ... لقد أرحتك من مسألة مهمة لم يكن لك بد من
عناء القيام بها !

فسعد إليه محمد أفندي ، نظره في امتعاض كظيم : كأنه
يتساءل :

أي مسألة مهمة تلك ؟

فتابع الشيخ قوله :

لقد أوصيت بإعداد غلبة ذهبية للمصحف الصغير الذي
سيكون تيممة الوليد ... وإن تكلفنا أكثر من عشرة جنيهات !
فصعد إليه محمد أفندي ، نظره وصوته ، فتجلى له ما يتحلى
به الشيخ من عبادة قشبية . ومُطَرَف مزخرف ، وعمامة زهراء ...
وسرعان ما رجعت إلى مخيلة محمد أفندي ، صورة الشيخ منذ
عهد قريب ، وهو في أسفاله وأطماره ، بادی الذلة والبذاعة ...
ففرقت عينه ، وقال بحد اللهجة :

عشرة جنياه ؟ ... عشرة جنياه ؟
فلا حقه الشيخ برّده :
أتصنّ بعشرة جنياه على حراسة وليدك العزيز الذى
تَعَمَّر به الدار ؟
فتوهجت عين محمد أفندى، وأحس الغيظ يشتعل فى صدره ،
ونهض واقفاً يَرْجُفُ ويصيح :
فلتهدم الدار على رأس الوليد وعلى كل من فيها ..
وألقى نفسه يندفع مبارحاً مكانه كالزوبعة الهوجاء ، وانطلق
إلى الطريق ...

٢٩

وبعد قليل بلغ الرجل بيت المأذون الشرعى ، فلما أقبل عليه فى
ركنه منكسباً على دفتره ، حياّه تحية عاجلة . وقبل أن يسمع ردّ
التحية قال فى صوت زاعق :
صل على النبى . .
فارتاع المأذون لمَرّآه ، ومسح لثعابه . وقال :
اللهم صل عليه ...
— لقد استخرتُ الله فى تطليق المرأة ...

— ٨٦ —

فتتحنح المأذون وقتنا، ثم قال :
 أبعد الله الشر ... ماذا جرى من بنت ابن الشيخ ؟ إنها
 بنت طيبة ، وزوا جُكماً قريب ...
 فصاح به محمد أفندى صيحة مُنكرة ، قائلاً :
 قلت لك : صل على النبي ...
 — اللهم صل عليه يا أخى .. ليكن بالك راقماً ...
 — بالي راقق ... ولكنى اعتزمتُ تطلق المرأة والسلام !
 وأعد المأذون نفسه لإلقاء محاضرته في إصلاح ذات البين ،
 والتنفير من أبهض الحلال ، ثم اندفع كالسيل يشقشق بالعبارات
 والجل . يئس أن محمد أفندى ، قاطعه قائلاً :
 أرح نفسك من هذا كله ، فإنى أعرفه حق المعرفة ...
 — هذا واجبٌ على أؤديه ... وإن الدين النصيحة ،
 ولك ما ترى ...
 — لقد انتهى الأمر ، ولا راد لقضاء الله !
 وسرعان ما دُونَت وثيقة الطلاق ...

٣٠

وشوهد محمد أفندي ، بعد أيام يَبْرَح «كفر عقيق» متخذاً
الطريقَ الزراعيَّ العام ، يمشي مُنْسَرِقَ القوى ، مُتَمَقِّعَ الوجه ،
غائر العينين ، عليه مِعْطَفٌ مُغْبَرٌ ، وفي يده حُرَّةٌ مهزولة حوت
كل ما يملك في دنياه من متاع ...
لقد أرغم محمد أفندي ، على أداء مؤخر الصداق وما إليه
من نفقات .. وأحرق به الدائنون ، فاستوفوا ما لهم من ديون ...
لقد فرغ اليوم من «عملية التطهير» الأخيرة ، فخرج من
القرية على هذا النحو ، يحدوه مصيرٌ مجهول ...

من أناشيد البرّدى

زهرة المرقص

١

في إضمامة من أوراق البرّدى العتيقة ، دُوِّنتْ هذه
القصيدة التي يبسطها شاعرُها على النحو الآتي :

إلى من تسقط في يده هذه الأوراق ، أروى هذه القصة .
إنها غُفل من الأعلام ، فأرحْ نفسك من محاولة التعرف
لصاحبها .

إنه إنسان مثلك ، صَبَّبتْ نفسه إلى أن ينقل إليك هذا
الحديث ، لعله واجدٌ في ذلك تسرية ، كما أنت واجد فيه مَسْلاة !
أما أن تعلم : أوهم ما يقال أم حقيقة واقعة ؟ فليس في ذلك
ما يَنْقُص من قدر القصة أو يزيد ...

أى جدوى لك في أن تكون القصة من وادى الحقائق ، أو
من صيد الخيال ؟

...تقرؤها في فسحة من وقتك ، وفرصة من فراغك ، فإن
شاركتني إحساسي وشعوري . باركتك وطلبتُ لروحك أمنا
وعلمانية في اجتيازها برزخ الأرواح ، ولجسدك سلاماً ورفاهية
في ناووسه الحجري .

وإن لم تقع هذه الأوراق من نفسك . وقعها المؤمل ، فلا
تكرّ على ولا تلغى ، إذ أضعتُ وقتك هباء . واختر أن تكون
سمح النفس ، كريم الخلق ، تنشد الرحمة لهذا الشاعر المأخوذ
الذي صَبَّ عصارة عمره زيتاً تضاء به دُبالَةُ الأوهام ...

هي قصة فتاة .

فتاة طالعت الحياة تمارس الرقص ، وتعرض فنها وفتنتها سلعة
في أسواق المواخير ...

لم تكن بذات حسن باهر ، يجتذبك بروعة القسامة والوسامة ،
ولكن روحها الحي المتألق كان يسرى في جسدها اللدن المشيق ،
فيتضوّأ ، ويبتّ من حوله الفتنة والسحر ...

إنك لتحسّ نور ذلك الروح وحرارته ، يشف عنهما ذلك
الجسد ؛ كما تحس ضوء الشمس ودفئها خلف غلائل الغيوم .
إذا اتفق لك أن تراها غفو النظرة ، وهي في مألوف الرواح

أو الغدو ، فإنك ربما ترفعتَ عن أن تعاود إليها النظر . بيد أنك ما إن تلحها قد توسطت مَدَارَ الرقص ، وجعلتْ تنقل قدميها في خفة وتراوح بين يديها بسطا وإرخاء كأنهما جناحا طائر ، وتأنوّد بخصرها كأنساب الجدول الرقراق ، حتى تراها وقد تضوعت منها فتنة نفاذة أخاذة ، وانبعثت من حوالها قبسات مشبوبة تتناغل بحرها بين الحنايا والضلوع

لم تكن تتحل بزينة بالغة ، أو تنحسن بملبس زاه ...

سرّها وسحرها كمين في ذلك الروح الوهاج ...

إنه ليظلمل كأنما هو حبيسر قسقم أحكم صماهه . فإذا ما احتوتها ساحة الرقص ، تخلص الصمام عن مكانه ، وانطلق الروح كأنه بخور مسحور يشيع ولا يفتأ يشيع . حتى يملك على الناس مسارب الأنفاس .

وقد تثير شعرها في الرقص ، وكان سببط الغدائر فاحاً ،

يتهدل كأنه سيف النخيل تعابثه نسبات الأصيل .

إنها تستعين بشعرها على التنقن في الرقصات ، فتارة هو غدائر تتواثب على الكتفين . وطوراً هو سابج على الصدر ، وحيناً هو غلالة تنسدل شفافة هفافة توقف الإغراء .

وسرعان ما طار لها في الأرجاء صيت ، وجرت بحديثها

السنن ، فلم ييسق في الأرجاء قاصيها ودانيها من لم يعرف
« زهرة المرقص » .

وماهى إلا أن تبوات مكانتها في سوامر الأمراء ، ومحافل السراة .
فراحوا يتهافتون عليها تهافت الهوام على الشراب المعسول ،
يَمْعُبُونَ منه عب العطاش !

وكانوا يُشَقِّلُونها بأمداد من مال ومتاع ، فتقلهم هى بالوان
من دلال ومطال .

لا يصدح ملل عن النلطف والتقرب والزلفى .
ولا تأخذها هواة ولا رحمة في تكسب واغتنام .
وما برح نجمها يتصعد ويأتلق ، حتى كان مالىس في حسابان .
لقد توارت « زهرة المرقص » ، عن العيون ، فاعترى الناس
طائف من دهشة وأسف .

أين ولت ؟

أما أنها ماتت ، فلا ...

لقد خلا ناووسها من جسدتها المعطر ... ذلك الناووس الذهبي
الذى شُغِلَتْ بإعدادة ، وشغفت بتنميقة ، بضعة أعوام ...
أتراها ظننت إلى ما وراء النجوم ، تقصد الشرق الأقصى ،
لتروع بفتنتها أقيال الممالك ، وغطاريف الشعوب ؟

لو كان ذلك شأنها ، لترامى إلى الأسماع حديثها ، فإن
أنبياءها قمينة أن نسيح بها طوافة النسيم ، وأن ترف بها أجنحة
الطيور ..

وظل استخفاؤها لغزاً لا يتبين له وجه ...
هذا قصرها ، قد تخلص عنه ...
وتلك حللاها ، لم تعباً بها ...
عجباً لها ... زهدت في كل شيء ، وتولت تنشدها نائهاث

الظنون ١

وتالت الشهور . والناس على عهدهم يلهجون بذكر زهرة
المرقص ، ولبا إليها الملاح ، ولا يملون في شأنها السؤال والاستخبار ،
يقلبون الأمر على شتى وجوهه ، ويتمثلون في استخفافها أشتاتا
من الفسرس والتخمين ...

فن قائل : إنها برمت بحياة الظهور والترف ، فشبهت
نفسها إلى عيشة شغل وانزواء ، ومن ميم احتوتها مثابة كاهن
من الزهاد ، في منقطع عن العمران .

ومن راجم بالغيب يرى أنها لم تجدها كفوا بين الرجال يقدرها
قدرها الحق ، فأثرت أن تكون للنيل العظيم عروساً تفنى في
أبوتة الخالدة ١

وهناك من كان يزعم أن رب الأرباب درع ، قد أغرم بها ،
فانقز بها من بين أحضان البشر ، وأفرد لها عشا في ملكوته الرحيب
تصبا فيه ، وبين القينة والقينة يهبط إليها ؛ ليتعرف أى شئ ذلك
الذى يفتن به البشر من لذاعة ومتاع ؟
وكأين من قصص وأساطير أنيقة الوشئ . جميلة التنسيق
تتناقلها الألسن في شأن تلك الراقصة التى ارتفعت عن أعين الناس ،
كأنما أدبر عنهم إله !

٢

وذات مساء جلست أُمّةٌ من الناس . يتنادرون أمام إحدى
الدور ، في حاضرة الجنوب .
وساقتهم شجون الأحاديث إلى أبناء « زهرة المرقص » ، فشرعوا
يتنافسون في تجلية ما يدور حول استغفائها من أقاويل .
وكان بين السّمار شيخ أشعث أغبر ، تقاذفتسه الفلوات
والأودية ، وعركته الرحلات والأسفار . فأما أديم وجهه ،
فقد كان ملوحاً بضرب إلى السواد ؛ كأنه الفخار مهدته
النار ... وقد عملت فيه السنون ما يعمل المحراث في الأرض من
أعاديده وتجاويفه . كل خلجة من خلجاته تفصح أنه جواب آفاق

تُسَلِّمَةُ النِّجَادِ إِلَى الْوَهَادِ ، لَا قَرَارَ لَهُ فِي أَرْضٍ ، وَلَا مَقَامَ لَهُ
فِي مَشْأَى ...

كَانَ الشَّيْخُ فِي الْحَلْفَةِ سَكُونًا خَافِضَ الْبَصَرِ ؛ كَأَنَّمَا أَخَذَتْهُ
سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ ، فَلَمَّا خَوَتْ وَفَاضَ الرِّوَاءُ مِنَ الْأَنْبَاءِ ، وَكَلَّتِ السَّنَةُ
الْجَلَّاسُ مِنَ التَّحَاوُرِ ... سَمَا الشَّيْخُ بِرَأْسِهِ ، وَانْفَرَجَتْ أَجْفَانُهُ عَنْ
وَمَضَاتٍ خَائِيَةٍ كَائِيَةٍ . ثُمَّ جَعَلَ يَعْتَصِرُ جَبْهَتَهُ هَنِيئَةً ، وَشَرَعَ بِتَكْلِمِ
بَهْوَةٍ مُسْتَضْعَفٍ مَهْوُوكٍ ...

قَالَ .

إِنْكُمْ مُتَسَائِلُونَ عَنْ تِلْكَ الَّتِي تَلْقُبُونَهَا « زَهْرَةُ الْمَرْقَصِ » ، ...
وَلِنْكُمْ لَتَقْصُونَ مِنْ أَنْبَاءِهَا حَدِيثًا عَجَبِيًّا ... وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ بَنِي ظَنِّي لَتَكُونَنَّ
تِلْكَ الْفَتَاةُ هِيَ الَّتِي شَهِدْتُهَا فِي بَعْضِ أَسْفَارِي الْقَصْوَى ... شَهِدْتُهَا
فِي مَطْرَحِ نَبَا عَنِ الْعِمْرَانِ ، يَسْكَادُ لَا يُعْتَدُّ فِي عَالَمِنَا الْأَهْلِ
الْمَسْكُونِ ...

وَعَاوَدَ الرَّجُلُ صِمَتَهُ ...

فَتَصَدَّتْ لَهُ الْعَيُونَ تَسَدُّدَ نَظَرَاتِهَا كَأَنَّهَا سِهَامٌ تَحَاوِلُ أَنْ تَنْقُذَ
فِيهِ ، لِشِيرِهِ وَتَبَعِيَّتِهِ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّكَلَامِ ...
وَرَأَى عَلَى الْمَجْلِسِ صِمْتَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِصِمْتِ الْمَسْجُونِ فِي بَاوُوسِهِ ،
يَنْتَظِرُ عَوْدَةَ الرُّوحِ ...

وعيل صبر الجمع . وضاقوا ذرعاً بهذا الترقب والانتظار ،
فازدحمت الألسن بفتنة تفتح على الشيخ سكتته ، وتدانت منه
الاجساد ، حتى ضاقت حوله الحلقة ، وأحس الأنفاس تتكاثف
على وجهه ، كأنها زوبعة هوجاء من زوابع البيد التي قاسى عنفوانها
في رحلاته من صُقع إلى صُقع ...

فصاح الرجل وقد احتقن وجهه المعقد ، قائلاً :

حسبكم من تَعَجُّل ...

ثم أشرع سبابته إلى نجم الالق في عُرْض السماء ، وقال :

إن هذا الجرم أقرب لكم من ألامن تلك التي تنشدونها ...

فازداد الجمع تألباً عليه ، وإحداقاً به ، واستحثاثاً له على

الإفضاء بما عنده ...

فشعر الرجل بأن أنفاسه تحتبس ، وما لبث أن غاب.

عن وعيه ...

فلما ذهب عنه الإغماء . ألقي نفسه في بهو تزامي أرجاؤه ،

وبسط ضياؤه ، ويشيع فيه نفخ الأطياب ...

وطالعتة عمدُ ضخام سوامق ، عليها النقوش والتهويل .

وراعته أستار من المُخْبَل تحجب النواذ والأبواب .

فجعل يرجع البصر كرات في ذلك الهو الرائع ، حتى استقر

نظره على منصة يعتلي عرشها رجل متلألئ في أكسيته الزاهية ،
ومن حواليه حشم وأتباع ...

وصاغت أذن الشيخ هذه الكلمات :

لقد ثاب إليه رشده ... قربوه ...

وما إن نطق سيد المنصة بكلماته . حتى أحس جوابُ الآفاق
بأنه غلاظ شداد تحمله ، فتلقى به عن كذب من قوائم العرش .
فألنى نفسه يهمهم :

أين أنا ؟ ... ماذا يرادُ بي ؟ ...

فدنا منه رجل وثيق الأركان ، فارع القامة ، في حلة حريرية
لماعة ، وهو شاكي السلاح ، أظهر ما يظهر من قسماته نُدْبَةٌ هي
أثر جرح غائر في جنبه ...

وما هي إلا أن قال للشيخ :

أنت بين يدي الأمير حاكم الجنوب المحفوظ بعناية رب
الأرباب ... وإنه لأمرك بأن تفضي إليه بما في علمك من شأن
« زهرة المرقص » ...

فأطرق الرجل وقتاً يللم ماتبعثر من ذكرياته ، ويجمع شمل
خواطره ، ثم قال حائر النظرات :

ليس لدى ما أضيفه إلى ما قلته ... إنها في مطر حبا القصي ،

— ٩٨ —

وإن نجم السماء لأقرب إليكم منها مَنالاً ...
 فعلت صيحة الأمير ، وهو ينتفض من غضب :
 ليس في الوجود ما يتعذر علينا مألّه أيها الصعلوك الشريد ...
 أصدقني ... أعلي ظهر الأرض هي فنشدتها ، أم طواها ، أوزوريس ،
 في ملكوته الخفي ؟ ...
 فأمعن الشيخ في شروده ، وهمهم :
 حقاً لست أدري !
 فصاح الأمير حازم اللهجة :
 ألم تقل إنك رأيتها ؟
 فقال الشريد ، وحَدَقَتاه تدوران في مَحْجَرِ يَهْمَا من
 حيرة واضطراب :
 بلى ... رأيتها ... رأيتها بعيني هاتين !
 ورفع سبابته يشير بها إلى كلتا عينيه . فقال الأمير :
 إذن هي في الحياة ...
 من يدري !
 وتعالى بين حاشية الأمير هممة تساؤل واستيضاح .
 وتحرك الرجل الحربى صاحب الندبة الغائرة في جبهته ،
 ومالبث أن رفع يديه بسوط غليظ ، وقال :

أفصح ، وإلا ألهمتُ بالسوط ظهرك ...
 فريج الرجل ، وتكش يرجف ، ثم صرخ بصوت راعش :
 قسماً برب الأرباب إنى لصادق فيما حدثكم به !
 وغامت الدنيا لعينيه ، واستلقى على أديم الأرض ، يستغيث
 هاذباً ...

وتقدم الرجل الحربى ذو الندبة من الأمير ، قائلاً له :
 مخبول هذا الرجل يامولاي ، أو لعله محموم !
 — سواء أكان مخبولا أم محموماً ، فإننا لن نفلته حتى يطلعنا
 على سره فى شأن «زهرة المرقص» ،
 وأقيم جِوابُ الآفاق فى حجرة من حجر القصر ، مخفوراً
 بأحراس ، محوطاً بأسباب العلاج والتريض ، مكفولة له راحة
 العيش ...

وما انقضت أيام حتى استعاد الرجل طمأنينة النفس ، وصفاه
 الفكر ...

وكان فى الفينة بعد الفينة يزوره الرجل الحربى ذو الندبة
 الغائرة ، فى يمنة سوطه يتلاعب به ، فيتحدث إليه تارة متبسّطاً
 يستدرجه ، وطوراً مغلظاً له فى القول يتهدّده ، فما قدّر على طول
 المجاهدة والمعاناة أن يستخلص منه إلا أمشاجاً أشبه شئ.

برؤيا ناثم ..

عرف الرجل الحربى ذو الندبة أن جواب الآفاق رأى
« زهرة المرقص » ليلة فى ضوء القمر ، وهى ترقص على مَرَج
كأنه بساط من سندس ، تُحْدَق به نُخَيْلات فوارع ، يحوس خلالها
جدول رقرق ...

رآها ، ولكن كما يرى طيفا من الاطيف ، لا تأخذه العين
إلا للحا ...

وكانت تتردد فى هذه الساعة أنغام ناي حنون ، لا يتبين
له صافر ...

ولبت الجواب وقتاً برأى من ذلك ومسمع ، لا يعلم أطلال
به وقتـه أم قصر ؟ ... بيد أنه موقن أصدق اليقين أن صوتا
هتف من حوله :

ابتعدْ أيها التائه الشريد عن هذا الوادى المقدس ... تنحَّ عنه
لا تطأه بقدميك ... انج بنفسك ، وإلا حاقت بك غضبة
القدس الأعظم . وحققت عليك لعنة الأبد :

ففر الجواب من فوره مذعوراً ، مستطار اللب ، يضرب فى
المفاوز والفلوات ..

ذلك قصارى ما انتهى إليه حديث جواب الآفاق فى شأن

« زهرة المرقص » ...

٣

وجاء يوم شاهد فيه أهل المدينة قافلة تبرز من قصر الأمير ،
على رأسها ذلك الحربي الفارع ذو النُدبة الغائرة ، وعن اليمين
جواب الآفاق ، ومن ورائهما الأعوان بينهم حملة الأمتعة
والأزواد .

وتناهى إلى المسامع أن القافلة إنما تبغى سفراً بعيد الشقة ،
في مهمة ذات بال ...

وفصّلت القافلة عن المدينة تودع الرفاهة والأمن ، بجوار
النيل السعيد ، وتستقبل ذلك الخضم العسجدي من الصحراء ، تعاني
في قطعه ألواناً من العذاب ...

وواصلت القافلة سيرها ، وسُراها ... تسيل بها الوهاد ،
وتعلو بها النجاد : فمن شمس تساط شواظها ، وتلهب مواطئ
الأندام . ومن زواج تبسط أستار الرمال فتعشى العيون . ومن
جفاف قاحل ماحل لا زرع فيه ولا ضرع . ومن ليل موحش تسرى
فيه زمزمة الضواري ، وتنخيل أشباح العاديّات ...
والقافلة فوق هذا العناء كله تمضي لغير هدف مرسوم ،

— ١٠٢ —

إلا تلك الرؤيا الحاملة التي ألفت بين أشنانها مخيلة جَوَّاب الآفاق
الشريد ...

وما زال رهط القافلة يمضون ويمضون ، حتى نجملت من
أيام رحلتهم أساييع وأساييع . وكأننا فوج من أسارى
سحب أفلتوا من مأسرهم ، فهاموا على وجوههم يطلبون ملاذاً
وقد عز الملاذ !

وشح الزاد ، وشاع في الأجساد هزال وإعياء ، وعلت
الوجوه غبرة الشظف والحيرة وغموض المصير ...
وتبادل الرفاق صمتاً يرده صمت . واستعاضوا عن الكلام
بالنظرات تم عن تخاذل وقنوط ...

واستبدت بقائد القافلة جهامة وعبوس ، ولم يعد يسأل جَوَّابَ
الآفاق عن شيء ، فقد نضبَ معيته من قول يضيفه ...

لقد عاد القائد يفكر فيما ينجيه من ذلك التيه ، أكثر مما يفكر
في بلوغ الغاية وإدراك المنشود

لم تبق في الركب قوة على متابعة المسير ، بل لم تبق في نفوسهم
أثارة من رجاء تشد من العزائم الحاوية ...
ولكن كيف السبيل إلى مآب ؟ ...

أنى للقائد ذى الندبة الغائرة أن يعود بمرجراً أذيلد

خيبة وإخفاق ؟

بأى وجه يلقي الأمير ؟

بأى لسان يبسط عنده العذر ؟

أينسى قول الأمير في يوم وداعه :

إنه لمعدّ له أنكالا وعذاباً ألماً إن هو قصر ، وإن هو لم يبلغ

ذلك المأرب العظيم !

أما جواب الآفاق فقد غشيه الذهول . وألح عليه الضعف ،

وانتهى به الأمر إلى أن تملكته غيبوبه أصمّت سمعه ، وعقلت

لسانه ... !

فظل مدوداً في محفة يتناوب حملها رفقة السفر ، منهوك

القوى ، لا يكادون يستطيعون لأجسادهم حملاً .

وصُبح يوم أقبل القائد ذو الندبة على جواب الآفاق في محفته

يصعد نظره فيه ويصوبه ، وقد باع منه الغيظ كل مبلغ . وما لبث

أن أمر بإلقائه على متن الرمال تتولى رعيه !

واستأنفت القافلة سيرها ... ولكن إلى أين ؟

وكانت الصحراء تتقاضى الركب كل يوم صريعاً هالكا أو

موشكا أن يهلك . وكأنما لذلها أن تقتنص كل يوم طعامها من تلك

الأجساد التي أنضأها السفر ، وأضناها السلال ...

وأخيراً حان يوم ألفى القائد ذو الندبة الغائرة نفسه فرداً يتنفس ،
لا عون له ولا رفيق ، ليس من حوله إلا حطام من متاع ...
وهبت عليه نكباء من ريح الصحراء ، أشاعت حوله الظلمة
والعبوس ...

وأحس أنفاسه تختنق ، والحياة تيبس بين أوصاله ...
وتواصلت أشهر ، والأمير يرتقب عود الركب ، يمني نفسه
بأوبة قائده المظفر ، وقد اصطحب الضالة المنشودة ...
ولكن الأشهر رَدِفتها الأشهر ، دون أن تذهب عن الأمير
مرارة الانتظار والترقب .
وأخيراً دبّ اليأس إلى قلبه ، فنسى شأن تلك القافلة التي
أصبحت في ذمة الظنون ...

٤

وفي أمسية من الأماسيّ المقمرة ، تحلق جمع من الناس بباب
إحدى الدور في حاضرة الجنوب ، وهم يسمعون ...
وفي أعقاب السمر تسلل بهم الحديث إلى شأن « زهرة
المرقص » فتنازعوه بألوان من الحدس والتخمين ...
وكان بين الجلاس غريب يشبه في أسنانه جواً ابى الآفاق ،

تعبث بوجهه التجاعيد ، ذو بشرة كلوّحها القيقظ تكسوها غبرة ،
وعلى جوانب وجهه يتهدل شعر غزير ...

ولم يكن يأخذ بطرف من أطراف السمر ، وإنما قنّج
بالإصغاء مطأطئ الرأس ، كأنما تسرى فيه إغفاءة . فما إن عرض
حديث « زهرة المرقص » ، وغاض فيه السّمار ، حتى جعل يرفع
رأسه ، وينفض الغفوة عن جفنيه ، ويقلب في وجوه المتحدثين
نظرات كليلّة عشواء ...

ثم همهم في صوت راعش :

أعَنّ تلك الراقصة الحسناء تتحدثون ؟ ... أكبر ظني أنها
هى تلك الفتاة التى لمحتّها في بعض أسفارى القاصية ... إنها فى مثابة
لا تصل إليها قدم بشر ... إنها بعيدة عنا بُعد ذلك النجم السيّار ...
وأشار يده إلى السماء !

فأتمّ الجمع أن أطبقوا عليه يحاصرونه بأسملتهم فى إلحاح ،
فلاذ الرجل بصمته ، وعيناه الكليلتان تدوران فى حيرة وخبال .
وسرعان ما شاع فى المدينة نبأ ذلك الغريب الذى يعرف سر
« زهرة المرقص » ، فلم يلبث الرجل أن أحس بنفسه محمولا إلى
قصر مُنيف ، واحتواه بهو فسيح الأرجاء تراءى فيه العمود ،
مزدانة بالرسوم والنقوش ... والاستار المخملية تكسو النوافذ

— ١٠٦ —

والآبواب، وذلك العرش المتألق تحفّ به الأحراس والأتباع ...
وتدأني منه رجل بادن متكتل في حلة حريرية ناصعة ، وهو
يتلاعب بسوطه ، وصاح به :

لقد سمعك الناس تتحدث عن « زهرة المرقص » ، ... فهلا
أوضحتَ الأمير حاكم الجنوب المحفوظ بعناية ربّ الأرباب
حقيقة ما تعلم ؟

فجعل الرجل يطوّف ببصره حوله ، يحاول أن يكشف عن
خيّاته ما ران عليها من ذّهلة وشروء .

وشاعت على شفّتيه ابتسامة حيرى ، وهم أن ينطق ، فلم يلك .
وطال صمته ... وأحس اسعة السوط من يد ذلك البدّين ،
وهو يقول له :

ألم تَعِ ما أقول ؟

فجمجم الغريب ، متلعثما :

رُحّماك !

— لارحمة قبل أن تُفضّى بما عندك ...

فرفع الغريب عينه ، يبعث منها نظرة زائغة ، وقال :

لقد قلت لكم إنها بعيدة المنال ... بعيدة كنجم السماء ،
ما أتمّ ببالغيه ...

وهوى السوط على ظهره ، فصاح الغريب يتضرع ، وقال الأمير
في صوته الركين :

أدركوه بجُرعة من شراب ...

وصافح هذا الصوت سمع الشيخ الذاهل ، فأرشف له أذنيه ،
وخيل إليه أنه صوت ينفذ من بعيد ، مخترقاً طيات الأحقاب ..
فأخذ يستنقذ ما بقي من ذاكرته تحت أنقاض الأحداث ...
وجىء له بقدح مُترَع بالشراب المنعش ، فاشتفه اشتفافاً ...
وجعل يعبت بشعره المسترخى على جوانب وجهه ، وما هي
إلا أن استبان في جبينه ندبة هي أثر جرح غائر ...

وانتفض الأمير ، متنعياً عن عرشه . وأقبل على الرجل
يتفحص سماته تفحص متثبت ...

ثم لم يملك أن صاح .

أهذا أنت ؟ ...

وانقبه الغريب ، واتسمت حدقتا عينيه ، وجعل يرنو إلى الأمير
كأنه يسيط الغبار عن صفحات طال بها العهد ...

ثم صاح فجأة :

مولاي ...

وخر ساجداً ...

وحمل القائد ذو الندبة الغائرة وهو مغمشى عليه إلى إحدى
حجر القصر ، محوطاً بألوان الرعاية والاهتمام .

ومضت أيام والرجل طريق الفراش ، صريع الحمى ...
وكان الأمير يعود في الحين بعد الحين . فيلازم مرقد ساعته
يصغى فيها إلى هذيانه ، وهو يقول :

« إنما في واحة » رع ، ... واحته العليا ، حيث الخضرة
السندسية ، ينساب فيها الماء من الجين : ويظللها النخيل الباسق
بسعفه الفينان . .

يا لهذا الناي الساحر يصغى فيه رب الأرباب ، فتخطر
على إيقاعه تلك الفاتنة الحسناء .. ،

وامتدت الحمى بالقائد ذى الندبة : حتى أفضت به الوعكة إلى
فقدان الحراك ...

ويوماً ذهبت الحمى عن الرجل بغته ، وعاجله صحو وهياج ،
فأشرق وجهه ، وسطعت عيناه ...

وسرعان ما طار النبا إلى سميع الأمير ، فقدم من فوره ، وأقبل
على القائد ، مستبشراً طلق الحميا ، وتبواً مقعده عن كسب منه ،
فرنا إليه القائد في ضجعته . وقد ضاعت على فة ابتسامة وديعة ...
وجيء له بقليل من شراب ، فصُب في فة ، فمرت في وجعته

انتعاشة خفيفة . وبعد فترة لاطف الأمير يد القائد ، قائلاً :
أُصْدُقْنِي ... أحقاً رأيتهما !
فهمهم الرجل خافت الصوت ، رزين اللهجة ، وئيد النبرات :
نعم رأيتهما ... رأيتهما بعينيّ هاتين !
وتاه بصره في الأفق ، كأنه يستعيد في خياله ذلك المشهد
البعيد الذي رأى فيه « زهرة المرقص » ...
ثم استأنف يُهمّهم :
ليست هي الآن من البشر ...
إنها حلم وردى ، تلوح أطرافه في عالم المنام ...
إنها روح لطيف يسرى في كون سماوى ...
إنها فكرة قدسية ، ترفّ في ملكوت ربّ الأرباب
« رع » ...
إنها شعاعة لمّاحة تدور في فلك الإله « آتون » ...
إنها عصيّة المنال عن هذا العالم الأرضيّ ...
إنها ...
وما هي إلا أن عرت الرجل هزة ، قال رأسه ، وتراخى
وسكنت أوصاله ...
فابتدره الأمير مستحثّاً ، في تلهف ، قائلاً له :

— ١٩٠ —

تكلم... أوضح ما تقول...
ولكن القائد كان في هذه اللحظة قد خلص بروحه من دنيا
الباطيل والأوهام ، وأصبح في ذمة « أوزوريس » ، حيث الحقيقة
الخالدة !...

إحسان لله

أدى « أبو المعاطى » فريضة الفجر في المسجد ، على مألوف عاداته في تأدية الفرائض حاضرة ، ثم غادر بلدته « كوم الزهر » القائمة في بقعة مشرفة على النيل شمال القاهرة . فما كاد يخرج من البلدة ، ويمضى في الطريق العام ، حيث الدواب تروح وتجيء ، والسيارات العامة تنهب الأرض — حتى كان أول شعاع من أشعة الشمس يحى الكون تحية الصباح . وكان النسيم رطباً مشبعاً بأنداء الفجر ، والحياة تبدأ انتعاشها البهيج والضوء في بواكيره يختلج على صفحة النيل ، فتناجيه العصافير وهى تبحر أعشاشها تلمس الرزق ناشطة .

بيد أن ذلك الجمال الرائق الذى يبعث فى النفس الراحة والطمأنينة ، لم يظهر له أثر على وجه « أبى المعاطى » فقد وضع على سياه طابع الهم والكآبة ، فهو يسير لاتعنيه سقسقة العصافير ، ولا مشى الدواب ، ولا جرجرة العربات . وإنما يفكر فى شأنه وشأن المهمة التى كلفه أبوه أن يقضيها له فى القاهرة : عليه

أن يقابل كاتب المحامى ، وأن يدفع إليه بعض الأوراق التى تخص قضية الأرض المتنازع عليها بينه وبين أقاربه ... كلفه ذلك أبوه ، ورضن عليه بركوبة يمتطيها ليصل بها إلى العاصمة ، فليس له إلا أن يقطع المرحلة سعياً على القدمين ، ثم يرجع بعد قضاء هذه المهمة راجلاً كما ذهب . وما كان يُعنى بهذا الأمر لو أن حياته العامة هنيئة رَغْدَة ، وأن له جوانب من معيشته تمنحه السرور والغبطة .

استمر أبو المعاطى ، فى سيره ، وكلما فكر فى شيء تداعت أمامه مناظر حياته الناعسة منذ نعومة أظفاره . إنه شاب يافع يبلغ الثامنة عشرة من العمر ، حالفه سوء الطالع منذ شهد الضوء فى هذه الحياة ، فقد قضت أمه نحبها وهى تلده ، وفى اليوم التالى شبّ حريق فى الدار كاد يأتى على كل ما فيها ، وكان العام الذى قضى فيه طفولته الأولى عامَ جَدب عانت الأسرة فيه أسباب العسرة والضيق . فتشام الأب والأهل ، بل سائر من فى القرية ، بهذا الوليد الذى اقترنت بمقدمته عوامل البؤس والأسى . ونشأ الغلام تحت سيطرة امرأة أبيه ، تغرى أباه بإبغاضه ، والتقرز منه ، والتشدد معه ولم يكن نالقى الوسيم المشرق الطلعة ، الذلق اللسان ، يستجلب ببشاشته القلوب ، ويسترعى بحلاوة لفظه

الآسماع، وإنما كان صموتاً منظوياً على نفسه، بائن القهامة، دميم الخلقه. فظل موضع امتهان أبيه وامراته، يكلفانه أعمال الدار، فيؤديها صاغراً لا ينبس. وإذا جال في القرية لم يرَ إلا منفرداً ليس له من صاحب ولا من خدين. فإن صادفه أحد العابثين فحاول مناوشته بسخرية لاذعة أو سباب جارح، تصام عنه، وأولاه إهمالا وعدم اكتراث، وهو يجيش في وجدانه شعور الترفع والازدراء!

ولما بلغ مبلغ الفتوة انتهى إليه عبء الحقل كله، فنهض به صابراً حمو لا يلقى من ذويه على موفور جهده جزاء ولا شكورا. وما كان له إلا أن يذعن ويستسلم لما أريد عليه، وكيف يستطيع أن يرفع بصره إلى أبيه متحدياً إياه، وهو يراه على الرغم من علو سنه جبار العزيمة، مهيب الكلمة. وهل ينسى مرة أنه عمل على أن يدخر مبلغاً من النقود في مدى من الزمن مديد، ليتغنى أن يشتري به بعض ما تطمح إليه نفسه في الأسواق. فتمسى إلى أبيه هذا الصنيع، فاستدعاه إليه، وطلب منه على الفور أن يخرج له ماعنده من المال، فهم الغلام أن يثور، وأن يأبى الاستجابة لهذا الأمر، فهو أبوه على صدغه بكف جبارة أخذت الثورة في مستهلها. وسرعان ما امتدت يد الغلام إلى أبيه، لا ليزود عن

نفسه ، بل ليعطى أباه ما جمع من المال والآمال ... وترك الغلام والده مطأطأ الرأس ، يجر قدميه ، وقد تحيرت في مآقبة الدموع . وفزع إلى المسجد ، حيث أوى إلى ركن فيه ، فأسلم رأسه إلى ركبتيه ، واندفع ينشج ويندرف العبرات . وأنهته سحلة عريضة ، فال يبصره يتفقد من قدم المسجد ، فرأى الإمام في طريقه إلى المحراب ، يتعثر في خطواته المهدمة . فنهض إليه يقبل يمناه ، وكان يلتقي أبدأ في رحابه أمناً ورفقاً لا يأنسها من سائر الناس ، فسأله الإمام : ما خطبك ؟ ... فأخذ يسرد له ما وقع من أيه ، فربست الإمام ظهره ، وطيب خاطره قائلاً : أباك ! أباك ! ... أنت ومالك لا إليك ... كن طبعاً صبوراً تغنم ثواب الله ...

ثم تحسس جيبه ، ومد يده إلى « أبي المعاطي » ، وهو يقول : قد تجد يا بني في هذا المبلغ على ضآلته بعض ما يعوضك عما فقدت ... وليكن قرضاً ...

فرد يد الشيخ في أدب وتمنع ، وشكر له جميله ، وانصرف من المسجد أهدأ بالاً ...

جد « أبو المعاطي » ، في طريقه ، تتوارد هذه الذكريات على خاطره ، وبدأ يشعر بأشعة الشمس تلقح وجهه ، والعرق

يتصبب من جيبه وصادف في سيره قرية قام فيها سوق الأسبوع،
فجاز بها ينظر ما يُعرض فيها من ألوان السلع ، واختلب نظرَه
فوق كل شيء منظر الطعام ، فقد رُصتْ بعض الصواني عليها
أشبات المأكول من أرز مطرز بأخلاق شبيهة جذابة ،
ومشويات يفوح قنارها فيفغم الأنف بأزكى الرائحة ... فرجعت
به الذاكرة إلى أيام صباه الباكرة ، حينما شهد ولية أعضاها
العمدة احتفالا بزواج حفيده ، فذاق مثل هذه الألوان ، وما
قى منذ ذلك اليوم يحد طيبها في فمه ... وأبطأت خطاه في جوانب
السوق ، إذ كان يتمتع البصر بهذه المراتى التي فتنت لُبّه ،
ويستنشق عبير تلك المطاعم التي تحلب لها ريقه ... ثم انساق
بقدميه ليستعد عن هذه الناحية ، ولم يلبث أن أحس بجوعه ،
فتلس جيبه ليستخرج اللقيفة التي أعادت لها امرأة أبيه تحوى
كيسرا من الخبز اليابس ، وقطعة من الجبن القريش . وهم بأن
يُساكت جوعته بقضمة ؛ ولكنه تذكر أن هذا زاده كله في
رحلته الطويلة ، فعليه أن يحسن تديره حتى لا ينفد قبل انتهاء
مهمته وأوبته ...

واسترعى نظره ضريح شاخص على الطريق، لأحد أولياء الله.
فحد الخطأ إليه ، وما إن داناه حتى أمسك بشباك ، وقرأ له

الفاتحة ، ثم أخذ يتضرع ويبتهل ، ويمسح وجهه بيديه مرات ...
وكان بجوار الضريح سائل مكفوف البصر يتلو بعض آى الذكر
الحكيم ، وإذا برجل ممتط رَ كوبة مطهمة ، تدل سماته على اليسار
والنعمة ، فأخرج كيسه المنسوج ، وأخذ منه قطعة من النقود دسها
فى يد القارىء ، ولم ينتبه إلى أن قطعة أخرى سقطت من الكيس
ولكن «أبا المعاطى» لمحا على الأرض فأسرع إليها ، وأخذ يقلبها
بين أنامله فترة ، وكان القارىء قد عاد يرفع صوته بآى الذكر
الحكيم ، فالتفت «أبو المعاطى» نفسه يرفع عينيه إلى الضريح هنيهة ،
ثم عدا فى طريق الرجل المحسن الماضى على مطيسته ؛ فصاح به حتى
استوقفه ، وناولته قطعة النقود التى سقطت منه ...

واستأنف «أبو المعاطى» سيره يغادر السوق ، وقد اشتدت
وطأة الشمس عليه ، وأحس بالهمّ ينمو فى نفسه ، والمتاعب تتجمع
على كتفيه ، وعادته ذكرى قطعة النقود التى ردها إلى صاحبها ،
وترأت لعينه صوانى الرز والشواء ، فتضاربت بين جوانحه مشاعر
الأسف والحيرة والقلق ... وانحنى ناحية على الجسر ، ووجد
الآبد من أن يخرج زاده من جيبه ، وأن يتناول منه مضغّة تردّ عنه
السقّاب . وبينما هو جالس يأكل ، سمع هرير كلب على مقربة منه ،
فحول إليه بصره ، فوجده يرقبه عن كثب فى خوف وحذر .

وجعل الكلب يرسل إليه نظرات توسل واستجداء، وهو يلوك لسانه بين فكليه، فحده « أبو المعاطي » بنظرات نكراء، وماعتم أن تناول حجراً قذفه به، فانطلق الكلب يعوى في ذلة المقهور، وأقبل « أبو المعاطي » على طعامه، يغمغم بالسباب ثم نهض يتابع سيره، وقد بدأت الطريق تشعب، فانطلق يسأل هذا وذاك:

أين السبيل إلى القاهرة؟

ودخل المدينة دخول الحائر الوَجِل، وقد بدأ صخب الحياة يكتفه، فطفق يستدل على مقر " كاتب المحامي في حي " السيدة زينب " . . . وشارف المسجد بعد جهد ومشقة، وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ، فأراد أن يريح جسمه بجلسة، وأن يصلي ركعتين بجانب المقام. وبعد أن أدى في المسجد الصلاة، تعلق بأستار الضريح ينفض نفسه في مناجاة وضراعة، ثم عدل إلى الباب، فرأى أناساً متفرقين يجلسون، فاختر مكاناً ظليلاً رطباً جلس فيه، وقد اعتزم أن يذهب إلى كاتب المحامي بعد أن يستوفي قسطه من الراحة والتفرج، واستند إلى الجدار، فغفا غفوة لم يدْرِ مداها، وعند ما استفاق من نعسته وجد الحركة تشمل المسجد، والأرجل تكثر غادية رائحة، وبينها هو في جلسته. مسترسل في

تفكيره ، إذ أحس شخصاً يقترب منه ، وشيئاً يُلقى في حجره ،
فرفع جفنيه ، وتطلع إلى ذلك الشيء ، فإذا به قطعة مغرية من النقود ،
فأمسك بها يلقها ، وهو ينظر إلى الذي ألقاها ، فهم أن يعيدها
إليه ، ويخبره بأنه ليس بشحاذ ، ولم يكذب يفعل حتى كان الرجل قد
غاب في زحمة السابلة ، فجعل يتفقده برهة دون أن يجدّه . ولحق
في فكره على الآثار مناظر الصواني عليها الرز المطرز والمشويات
الشهية . أليس هذارزقا ساقه الله إليه ؟ أو ليس هو بركة السيدة
زينب ، وساحتها الكريمة ؟ وتلفت يمينه ويسرة ، فلم يجد أحداً
يُعيّره التفاته ، فأسرع بقطعة النقود يحفظها في جيبه ، ورغب في
القيام ، ولكن هاجساً هجم في خاطره أن استرخ قليلاً ، ففي
الوقت مندوحة ، وليس مقر كاتب المحامى بعيد . وفيما كان يسبح
في أخيلة شتى ، وجد امرأً في منصرفه من المسجد ، أنيق اليزة
وجيه الطلعة ، تحفّ به شمائل الطيبة . فتصدى له سائل كسيح
يظال على عكازته ، ومد له يمينه مستعطفاً ، فنفحه الوجه بقطعة
من النقود ألهمت لسانه بالشكر والدعاء . فأحس « أبو المعاطي »
على الفور يده تمتد ، وهكفه تنبسط ، فوقع بصر الوجه عليه ،
فأخرج قطعة من النقود ، وألقى بها إليه ، فاختلج قلبه وأسبل
أهدابه متناوماً . وبعد هنية استخفى شبح ذلك الوجه ، فجعل

« أبو المعاطى ، يضمّ قطعة النقود إلى أختها الأولى ، ثم انسرح
يفكر : ماذا يأكل ؟ وأى الألوان يختار ؟ وتباينت تصوّراته
في شَهَوَات الغدَاء !

ووجد نفسه بطيل الجلوس ، فهتف به هاتف : أَلَمْ يَحِنَّ
الوقت لأن يهبَ إلى كاتب المحامى لينجز المهمة التى قدِمَ من
أجلها ؟ ولكن يده كانت على حالها مبسوطة الكف ، وعينه كانتا
مطبقتى الأجفان . وسمع اثنين يتحدثان على قَرَبَةٍ منه ، فيقولان :
حقاً إنه لسائل جدير بالإحسان !

وهبّطت على يده فى الحال قطعة النقود ، غَطَّطَتْ بِهَا
« أبى المعاطى ، صورةُ القارئ القاعد بجوار الضريح ، وهو فى
جلسة الذلّة والمهانة ، فتحرّكت فى قلبه أشياء من الأنفة والعزة ،
وتهايأ ليفارق مكانه ، فإذا امرأة عجوز تنوكأ على عصا تدنو منه ،
وتضع فى يده على استحياء وصمّئت قطعة من النقود لها قيمتها ،
وتهمس فى أذنه ملحّة أن يسألَ لها الله شفاءً ابتها التى أضنتها
العلّة ، فلم يتحرك فى مجلسه ، ولم يفتح عينيه لها ، واجتهد أن يقاص
من قسّات وجهه تعبيراً عن معنى الإبتها إلى الله ، وهو يهمهم
بكلمات مضطربة لم يستب من حُرْف ، وعادت العجوز أدراجها ،
وهى تقول :

الدعوةُ من خُدام المقام هؤلاء ، ليس بينها وبين السماء حجاب ...

وامتدت جلسة « أبي المعاطي » وعمر جيبه بقطع النقود ، فما كاد الظلام يُرخي سدوله ، حتى فطرت الحركة ، وانقطع سيل الزوار : فنفض يلمّ شعثه ، ويستقبل الطريق يتحسس النقود ، ويعدها مرة بعد مرة ، وقد أدار في ذهنه أن هذا المبلغ من المال يعدل كسبَ أيام معدودات في الريف ، عاملا فيها على أدنى الحقل في وقْدَةِ القَيْظِ ، مقاسياً ضروب المشقة والكد ، وها هو ذا قد يسره الله له وهو في جلسته الهادئة الوداعة . أو ليس برهان رضا أسبغهُ الله عليه ؟ أو ليست هذه رحمة ربانية تستوجب مزيداً من الحمد والشكران ؟ وورغ بصره إلى السماء ، مبتهلاً إلى وليّ النعم أن يديمَ عليه مِنْنَتَهُ ... ثم مسح وجهه بيديه كليهما !

وانساب يتصفّح الحوانيت منشغلاً يبحث عن طعام ، ومثّل أمام وجْهة الزجاج على باب أحد المطاعم ، وقد فتنته من ورائها مناظرُ الشواء تنطير رائحته شبيهة مغرية . فأعاد راحته إلى جيبه يتلّس النقود ، واشتبكت في رأسه أسراب الأمانى : لم لا تكون هذه الصرة نواة ثروة يشتري بها ثوباً أنيقاً يجمّله ، وَقَلَنْسُوءَ تزهو على جبينه ؟ ألا يسكُ رَمَقَهُ ببقايا الزاد في

الانفية التي أعادت له ، ويحتفظ بما جمع ؟ وهنا ازدحمت على
خياشيمه روائح الشواء ، فما هو إلا أن اندفع نحو المطعم ، وملأ
بطنه بما لذّ وطاب حتى اكتفى ، ثم خرج يتجشأ نشواناً ، وسار
بخطرات أثقلتها التخمّة ، وقد أحسّ الرغبة الملحة في أن ينام ...
وما كاد ينعطف في أحد الأزقة المجاورة حتى ألقي زاوية
مهجورة بجوار خربة قد تمدد فيها أحد الصبية المشردين ، فأنحى
مكاناً غير بعيد منه ، فهتده لرقاه ، متوسداً ذراعه ، ولم ينس
قبل أن يُسلم للكرى مقلتيه أن يخرج نقوده ويعدّها ، فرأى أنه
لم يبق منها إلا فلول ، فقد مضى الأكثر الأغلب فيها حشايه بطنه من
ألوان العشاء . فلبث يتأمل البقية الباقية ، ثم أحكم ربّطها ،
ووضعها في قرارة جيبيه ، وهام في أحلامه ، معتمداً أن يقضى
مهمته مع كاتب المحامى من غده ، ويرح القاهرة إلى بلدته ،
مكتفياً بما راج له من عطية الله ... ١

ولما أهملت تباشير الصباح . انبعث من مرقده ، فكان أول
ما سنح لمخاطره أن يتحسس ربطة نقوده ، فاطمأن إلى سلامتها ،
وبنى عزمه على أن يكون في يومه قنوعاً . فعرج على لفيفة
الزاد التي جلبها من البلدة معه ، ففكّ وثاقها ، وبسط رقعتها أمامه
وجعل يرنو إليها برهة ... ومر برأس الزقاق باتع جوال ، يحمل

صينية فطير ، وهو يصيح متغنياً بما ضمت من حُلُو لذيذ . فبدأ « أبو المعاطي » يده إلى زاده ليقناول أول لقمة يتباغ بها ، فإذا بيده ترتد إلى قرارة جيبه ، وتستخرج ربطة النقود . وسرعان ما استوقف بائع الفطير ، فابتاع منه واحدة ، والتمها على الأثر ... وما كاد البائع يضع الصينية فوق رأسه ، ويستأنف سيره ، منشداً مقطوعته في الإشادة بالفطير الحلو اللذيذ ، حتى وثب إليه « أبو المعاطي » يبتاع فطيرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة ... وألقى نظرة على ربطة النقود ، وقد خوت مما حوت : ماله والنقود يتحسّر على ما أضاع منها ؟ لقد تناول فطوره ، بحمد الله ومَنه ، وهو قاصدٌ مقر كاتب المحامى يقضى مهمته في لحظات ، ثم يشوب إلى بلده راضياً ...

وسارَ مُجدّاً يدفع بمنسكبيه الهواء ، فما إن قطع الزقاق ، ومال إلى الطريق العام ، ووجد نفسه في متّجه المسجد ، حتى شعر بخطاه تتد : أيلق أن يقرع أبواب البيوت في ذلك الوقت الباكر ؟ وهل يجوز أن يذهب إلى كاتب المحامى قبل أن يؤدي فريضة الصبح ؟ ... إلى المصلى إذن ...

ومضى إلى المسجد حتى بلغ بابه ، فوقف يتأمل رُواده بين ذهاب وأوْبَة . واسترعى انتباهه أنه وجد حواشي الباب

وقد عثش في كل ناحية منها سائل مستقر في وكره ، كأنه
مقامه الموروث ... وثني طرفه إلى الركن الذي كان يستريح
فيه أمس حين قدمه القاهرة ، فرآه خالياً ... ها هي ذى الشمس
قد سطع شعاعها منذ برهة ، ولم يعد لوقت الصلاة مُتسع ،
فسواء عليه أن يصلح الصبح الآن أو بعد فترة . لا جناح عليه
إذن في أن يستمتع وقتاً بنسيم الصباح البهيج في ذلك الركن الظليل .
فأفضى إليه ، واحتله في طمأنينة وسكون ، ومرت فترة لم يتحرك
في جلسته ، وقد أسبل جفنيه إلا قليلاً ، وتظاهر بالنعاس ،
فسرت إلى أذنه همسات مبهمة : فألقى إليها سمعه وباله ، وأدار
حواله النظر خلسة ، فاستبان له أن السائلين يتهايمسون في شأنه ،
ويتغامزون به ، فأغضى ، ولم يُبد لهم أنه فطن لشيء .
وشرع رواد المسجد يتوافدون على أبوابه ، وأخذت
قطع النقود تهافت على يد « أبي المعاطي » ، فكان يلقطها ويدسها
في جيبه عَجولاً ... ولا حظ أن من يمر به من المتصدقين يقف
برهة بفقرس فيه ، ويتألم لما يبدو على وجهه من علامات البؤس .
والمسكنة ... فأدرك أنه قد أوتى ملاحح معبرة تستدر
الإشفاق . وما كاد يفطن إلى ذلك حتى ازدادت تلك الملاحح من
وضوح ، وصحبتُها أناث وثرنيات تجتذب الأنظار .

وطالت الجلسة ، وتوافر المدد ، ورفّ على ذاكرة
 « أبي المعاطي ، شأنه مع كاتب المحامي ، ووعدّه أباه أن يعود إلى
 البلدة في يومه ، فاهتز في جلسته ضجراً ... ليس بالأمر المنكر
 أن يبقى بالقاهرة يوماً ، على أن يعود لا بحالة غدا ، أليس له بعد
 أن أمضى في العمل المتواصل دهرأ طويلاً يسكُند ويجهد نفسه
 لمصلحة أبيه أن ينال حظه من المتعة يوماً ؟ لقد اعتصر دمه في
 سبيل منفعة الأسرة والقيام على مرافقها ، أفلا آن له أن يستجم
 قليلاً بعد طول السكد وفرط العناء ؟ وفوق ذلك لن تكون
 النقود التي جمعها من حقه وحده ، بل إنه سيُشرك فيها أباه .
 وهل يبلغ به الجحود أن ينسى نصيب أبيه مهما يكن من
 أمره معه ؟

أخلد « أبو المعاطي » إلى هذه الفكرة ، واستقرّ في جلسته ،
 يستنشق النسيم العليل في الركن الظليل ...
 وانطوى اليوم ، و « أبو المعاطي » في مكانه بجوار المسجد
 تهيّط عليه الحسنات ، فما هو إلا أن يأخذها حسنة بعد حسنة
 ويودعها قرارةً جيبه ، وهو هائم يتنقل بين التصورات
 والآمانى .. وظل كذلك لا يستطيع برّاحاً ، وحين أحسّ
 بالجوع في بعض النهار ، تبلغ بشيء مما يطوف به باعة السوق .

وما كان له أن يبارح مكانه والناس بين مقبل على المسجد ومنصرف عنه ... فلما آذنت الشمس بالمغيب ، أبصر بالسائلين المرابطين حول المسجد ينقرط عقدهم سائلا في لائثر سائل ، هذا يجر عكازته ليتحامل عليها ويَظْلَع ، وذاك يحمل غِرَارَتَه على كتفه ، وذلك يستدعى غلامه ليقوده . فقام « أبو المعاطي » يتمطى وهو يروض على السير أوصاله التي خدّرها طول القعود ...

وتغلغل في الطريق ، واخترق بعض الدورب ، فوافق سائلا من كانوا معه بباب المسجد يبط اللقائف التي شددت بها يده إلى عنقه ، وينزع الضمادة التي أدارها على عينيه ، ثم ينفتل مستقيم العود ، صمّيح الجسد ، يشق حجاب الظلام بعينين تلتمعان ... ونشد « أبو المعاطي » من الدرب إلى الشارع ، وانتهت به قدماه إلى مطعم ممتاز ، فلا بطنه مما اشتهى ، وقضى ليلته حيث قضى البارحة . ينأى بأعذب الأحلام ...

وفي رونق الصبح ، راع جماعة السائلين حيال باب المسجد أن « أبا المعاطي » قد شدّ يسراه بلقائف إلى عنقه ، وتوكأ على عكازة غليظة ، وهو يدُرْج في جهد وإعياء ... ثم انتهى إلى مكانه المختار فاحتله كسابق يومه ، وما كاد يستقر في مجلسه ، حتى تعالى

الحسيس حواليه ، وتزاحمت الهمهمة ، فتلقت في خلصة فأبصر
برفاقه يسددون إليه النظر وهم يتغامزون . ولم يطل به المقام حتى
أخذت عينه قادمة من السائلين لم يره من قبل ، وهو شيخ منتفخ
الجثة ، مترهل الاكتاف ، ذو لحية شطاء ، يضع على رأسه عمامة
خضراء ، ويرتدى جبهه تكاثرت فيها الرقاع مختلفة الألوان ،
وتبدل على صدره سُبُحَة طويلة ذات حبات غلاظ وجعل
الشيخ يتهادى نحو « أبو المعاطى » فكلمها دنا منه لمعت على وجهه
سيماه الدهشة والحقق . وما إن حاذاه حتى أخذ يصوبُ فيه النظر
ويصعده ، واشتدت هممة الرفاق ، وتقاربوا نحو القادم الشيخ ،
يحويونه تحية احترام وتلطف . وسمع « أبو المعاطى » ذلك الشيخ
يسأله :

ما أنى بك إلى هنا ؟

فأجابه :

أتيت أستريح بجوار بيت الله ، وضريح السيدة الطاهرة ...

— هذا مكانى ... فكيف ساخ لك أن تقنحمه ؟

— الساحة فسيحة لمن يريد الجلوس ...

— قلت لك هذا مكانى ، فعليك أن تنتحى عنه !

فنظر إليه « أبو المعاطى » نظرة متفرس ، وقال فى شيء

من الازدراء :

ومن أنت حتى تطلبَ إلىَّ أن أتحنى لك عن مكان أجلس

فيه ١٤

— قلت لك هذا مكانى، وقد اتخذته لى مَـثَابَة منذ خمسة
أعوام، إذ ورثته عن عمى، فكيف ساخ لك أن تنهز فرصة تغيبى
لنحتله دونى؟ ... وكان عليك قـ بل أن تنضم إلى الرفاق أن
تسأذنى ...

أو حسبتنى مستجدياً مثلكم؟ إنما أطلب الراحة والتبرك
بمجاورة الضريح المطهر ...

— خلّ عنك هذا الهراء ... لم يسبق لأحد أن يأخذ فى هذه
الساحة مكاناً إلا إذا أجزته، وعينتُ له مجلسه لا يعدوه ...
فلم يُبدِ أبو المعاطى، حَـراكاً، بل لبث يقلب فيه البصر،
فشعر بقدم الشيخ ترّكـله، وهو يقول :

قلت لك تنحّ، وإلا فالعاقبة وبالٌ عليك !

وفى هذه اللحظة برز من المسجد رجل، فرمى بقطعة من النقود فى
حجر « أبى المعاطى، ومضى لِطِيبَتِهِ، فما كان من الشيخ إلا أن
انقضَّ على القطعة انقضاض الصقر، ولم يشعر « أبو المعاطى،
إلا وهو يثب على الشيخ، ويشدّ على يده، وينزع قطعة النقود .

وفي لمح البرق ألنى نفسه مشتبكاً معه في عراك عنيف ، واستمر
الصدام وقتاً ، وهما يتواثبان ويتغالبان ، والرفاق حلقة حوّلها
يتفرجون . وما زال « أبو المعاطى » يستشعر يقظة السطوة
تسرى في أعضائه ، ونار الحمية تتلظى في قلبه ، وقد استحال
كله أعصاباً نافرة نائرة ، حتى وجد نفسه قد أخذ بخناق الشيخ
وهو جائم على صدره ، يكيل له الضربات بجُمع يديه . فتخاذل
الشيخ ، وندّت عنه صيحات الاستغاثة والاستنجاد ، فنظر
« أبو المعاطى » وهو آخذ برقبة الشيخ إلى الرفاق حوله بعين
متمرة ، ووجه يئمّ عن الاقتراس والحيرة . فتصاغر الرفاق ،
وتدا خلتهم الخشية ، ولم يجرؤ أحد منهم على أن يتصر للشيخ
العميد . فلبح « أبو المعاطى » في هيئتهم معنى التسيب له ، والرهبة
منه ، فارتدّ إلى فريسته يقلب فيها النظر ، فاطمأن إلى أن الشيخ
لم يعد بقادر على أن ينازله ، فتركه ملقى على الأرض ، وعاد إلى
مكانه ، وجلس فيه جاسة التأمر والتنفخ . وهو يسوى من ثيابه ،
ويمسح التراب عن وجهه . وبعد قليل نهض الشيخ كسير الخاطر ،
مستكين النفس ، وانتبذ ناحية قصية يأمن فيها جانب ذلك الشيطان
العنيد ... وتنفس « أبو المعاطى » تنفس الارتياح ، وتلبس
هيراوته ، فقرع بها الأرض في نشوة ، وقد برقت على فمه

أن يتخذها للتعبير عما يجيش في نفسه، خائفته ولم تكن له عوناً ...
وأى سمع ؟ إن هو إلا سمعٌ ثقيل مضطرب ، لا يُنبئله إلا
أطراف الحديث منقوصة تزيد من حيرة وقلق ...

فأما كل ما أبقته له الكارثة من قدرة وسلطان ، فهو تلك
الحشرة المحتبسة التي يصعدها بين حين وحين ، حاملةً إلى عالم
الأحياء رسالة الآلام والحسرات !

توقد نشاط دفتنة ، وحميتها في خدمة البيت ، فاستخفي ذلك
الشبح الركين الصموت المنقوس الظهر الذي كان يجر جر خطاه ،
وظهر مكانه مارد فارع القامة ، جبار الخطوة ، سريع التنقل ،
يقلب حواليه أنظار صقر مفترس !

أقبلت دفتنة ، غداة الكارثة على حجرتها حيث اعتقلت
زوجها ، فجاست عن كُشْب منه ، وشاع بينهما الصمت هنيهة ،
وكان الرجل يبذل جهده محدّقاً في وجه دفتنة ، كأنه يحاول أن
يكتنه ما يحيط به من مظاهر ، وأن يستجلي ما تُكتمه سريرة تلك
الزوجة من مشاعر ...

وكانت تبدو على غصون وجهه مهانة الضراعة ، وذلة السؤال ،
وكلباً أمعن في التحديق والتطلع إلى دفتنة ، تشاغلته عنه ،
وأشاحت بوجهها دونه ، فلا يملك إلا ترجيع الاثنين ...

وبعد لآى نطقت المرأة تقول :
ربما عجبت : كيف لم نُحضر لك الطبيب ؟
وتخاليت على فيها ابتسامة نكراه ، وواصلت قولها :
وما نفعُ الطبيب يا سيدَ الرجال ؟ إنه لا يؤخر الأجل عن
موعدِه ، داؤك واضح ، وأنا عارفة به ... أصيبت به أمى فلم
يُبهلها أكثر من يومين ... يومين اثنين !
واختلجت عين الرجل ، وتشنج شدّ قاه ، وتابعت المرأة
قولها كأنها تتحدث إليه حديثاً مألوفاً لا غُبار عليه :
وفيم العجب ؟ كنا إلى الموت نصير ... لقد تبين لى أن
حالتك كحالة أمى سواء بسواء .. وإن إخلاصى لك ليدعونى أن
أصارحك بهذه الحقيقة ، حتى تنأهب لتلقى وجه الله !
وصمت « فتنة » وقد تلهّب فى عيننها وميض ساطع ، ثم
همهمت تقول :

ولكن لست أدرى بأى وجه تلقى الله ؟ وقد أسلفت فى
دنياك هذه المخازى التى يتورع عنها الأبالسة والشياطين ... كنت
تَحسَب أنك قادر على أمرِك إلى الأبد ، وأن الدنيا تدين لك على
الدوام ، فظلمت تُصعّد وتُصعد ، وتُدلى إلى من هم دونك نظرات
إصغار وإزراء ... حقاً ما أعظم المرض من قاهر ، وما أقوى

— ١٤٧ —

الموت من مُذل!... ما رحتَ في مهلة من عمرك للتوبة والاستغفار ،
تظهِرُ لنفسك ، واستدراكاً لأمرِك ... ولكن لا تحسبن أن
الموت عمالك أكثر من يومين ، مضى منهما بعض وقت !... إن
أُمى حَلَّت بها مثلُ كارثتك ... في مثل الوقت الذى حلت بك
فيه وقد ماتت في مَبرِقِ الصبح ... وستموت أنت في هذه الساعة
عينها إلا محالة ...

فندت من صدر المريض زفرة مرتعشة ، وغارت في وجهه
الآخايد ، وعالج أن يُحدث من بصره السكابي ، فترجحتْ حَدَقَتاه ،
كأنه في اضطرابه وحيرته ، يتسامل

أيقظان هو يرى ويسمع ؟ أم نائم تنبيهه إلا عنزَم ؟ ... أهذه
« فتنة » قبالة تحدثه ؟ أم ذلك شيطان تشكّل له في صورتها
وزيئها ، وجعل يرؤعه بالمنكر من القول ؟

وفطنت المرأة إلى خوالجه ، فرفعت من صوتها ، وهى تتدانى
إليه قائلة :

كل ما تسمعه وما تراه حق لا مَسْحَة للخيال فيه ... إن
زوجتك « فتنة » ، بلحمها وعظمها هى التى تتحدث إليك ... إنها
أمرأتك الوفية المخلصة التى صدقتْ في حبها إياك ، ووهبتك
حياتها جماء ، فكافأَتْها بأشنع الجحود وأفبح الجزاء ... لقد

أشركتَ بها فتاة حقا غريبة ليس فيها ما يغري القلب أو يسر الناظر ... لا يقبّادرن إلى ذهنك أنى غيور ... وهل أحفل بتلك الحشرة الممقوتة فأحسب لها أى حساب؟ ... ماذا بها من ميزة تبعث غيرتى ؟ ... إنها عاقل من كل شيء ... شدة ما سقم ذوقك ! ... لو كنتَ اصطفت لك زوجة ذات حسن باهر ، أو سلية بيت ماجد ، لالتمسنا لك المعاذير ، ولكك لم تظفر إلا بفُضالة مما تلفظ الأزقة والحارات ، فرفعتها بغفلتك إلى صفوف الزوجات الكرائم ... على نفسك جنيت ، وعليها أيضاً كنتَ جانباً !

وكان عثمان أفندى ، فى مرقده ، تزداد غضون وجهه ، واختلاجات عينيه ، على حين استأنفت المرأة تقول فى صوت أبحّ ، كأنه خفيح الأفاعى :

أنصح لك أن تهدئ من ثأرتك ، وأن تهوّن على نفسك ... لا يجدى عليك الخنق قليلاً ، لا يطيل من أجلك كثيراً أو قليلاً ... بل لعله يسرع بك إلى المصير المقسوم ، والقضاء المحتوم ... ولومتّ قبل الموعد المضروب لأفسدت على التدبير ، ولزججتَ بى فى حرج وضيق ... لقد ربتُ أمورى على أنك مُسلمٌ رُوحك مع الفجر ، فأوصيتُ باحتفار قبر جديد لم يطام

جثمان ، وسنقيم لك على القبر بناء من المرمر المصقول ... فأما
الجنّازة فقد هيأت لها نظاماً سيكون غاية في الروعة ... إنى امرأة
تعرف الواجب للعشير ، وإن أنكر هو ما كان واجباً عليه ...
إن كان لي عيب فهو الإحسان لأن أساء إلى ... وعلى الرغم
من كل هذا أراك ممعناً في طيشك ... أراك تُغمض من عينيك ،
كأنك تأبى الاستماع لما أقول ... ولكنك تنسى أنك لا تسمع
بعينيك ، فإن لك أذنين ضخمتين تلتقطان أخفى الهمسات !
واندفعت كالسيل تم قو لها والرجل مطبق أجفانه ، يتجرع
تلك السموم التي تنفثها تلك المرأة جملاً وكلمات ...
وما زالت المرأة تقول ، حتى يَجَّ صوتها ، وجف حلقها ،
فهضت إلى القلة تكررّع منها ، ثم رجعت بها إلى الرجل ، ووضعت
حافتها على شفتيه ، فما إن أحس نداوة الفسّار حتى انفرجت شفتاه ،
وهو على حاله مغمض العين ، فصبت المرأة في فمه جرعات قلائل ،
وهي تعينه على أن يُسيفها في غير عناه ... وكانت تردّد :
لا تظننى أسمى معاملتك ، وأنت في هذه الحالة ... سأقيم على
خدمتك حتى الرمق الأخير ، أعنى حتى مطلع الفجر ... !
وانصرفت عن الحجرة وقتاً ، ثم قفلت إليها تحمل صحفة فيها
حساء ، فقرّبتها من الرجل ، وأخذت عليه تسقيه بالملعقة في رعاية

كانها تعلم طفلًا قريب عهد بالفطام ...
ولما فرغت من إشرابه الحساء ، أقبلت عليه تمسح فيه ، وتغنى
بترجيل شعره ، وتنظيم فراشه ، ثم همهمت تقول :
لعمري إن موتك ليشقّ عليّ ... مهما يكن من أمر ، فما
أقسى ساعة الوداع بين اثنين جمعت بينهما المعاشرة جنبًا إلى جنب :
قرة من الزمن !

كذلك كان شأن دفتة ، مع عثمان أفندي ، وهو طريق
سريره . أسيرُ علته . أما شأنها مع دهبية ، فقد دخلت عليها في
حجرتها ، وأبلغتها في صرامة ألا تبرح الحجرة ، وألا تصدُرَ
منها نامة أو صيحة ، وإلا كانت العقبي أو خم ما تكون ...
ثم ألقت عليها نظرة ذابت من حرارتها أعصاب دهبية ، فلم
تملك ردا ، وما هي إلا أن غادرت دفتة ، حجرة ضررتها ،
وأحكمت إغلاق بابها بالمفتاح ...

ولبثت دهبية ، في الحجرة طول النهار ، حبيسة ، موزعة
الخواطر ، تشردها الهواجس كل مشرّد ، ولسكنها لم تجد سيلا إلى
غير الطوع والإذعان ...

لبثت في تحبّسها تلك الساعات الطوال ترهف السمع ، فلا
يتأهى إلى أذنّها إلا خفق أقدام دفتة ، يحمل إليها الرهبة والفزع ...

ومتى انقطع خفقُ هذه الأقدام رزح في الحجرة صمت ثقيل يحمّد
الأنفاس ...

وما كاد ضوء الأصيل ينهزم في معركة الليل المقتحم ، حتى
ضاقّت « بهية » ذراعاً بما تجدد من ظلمة وإيحاش ، واستشعرت
ثورة مباغتة ، فشرعت تطرق الباب في إصرار ، فما هي إلا أن قدّمت
« فتنة » فدخات من الباب كالإعصار ، ووقفت قبالتها تردد في
صوت مختنق :

ما هذه الجِنَّة ؟ ألا تشفقين على المريض ؟
وألفت على « بهية » نظرات سراعاً ، فقطنت إلى أنها تتجمل
للهرب والانفلات ، فأمسكت بها تنهال عليها لطمًا ولكمًا ، حتى
أوشكت أن تسلبها الحياة ...

ثم وقفت تنظر إلى « بهية » وهي مصروعة تحت قدميها ، كما
تنظر النمر الضارية إلى فريستها بين المخالب ... وانبرت تقول :
يظهر أن الله قد كتب على الشقاء في دنياى ... حتى لقد أراد
لى في آخرة عمرى أن أتولى تهذيب أمثالك من حُشالة الأشرار
والأوغاد ... أعلىّ اليوم أن أصلح منك ما أفسدته السنون ؟
لا بأس ... إنى أحول صبور ، وسأضطلع بهذه المهمة ،
لا ألوجهدا ...

وخرجت دفتة ، من الحجرة ، فأحكمت إغلاق بابها كما
كان ...

وجئن الليل يضرب رواقه على هذه الدار ، حاملا في انضاعيفه
ثقال الهموم وعظائم الأسرار ...

وأبت دفتة ، أن تضيء حجرات الدار أى مصباح ، فلم
يخدش حندس الليل فيها إلا فلول مهزولة من أضواء الطريق ...
وازدادت الظلمة وحشة ورهبة بما ران عليها من صمت عميم !
ولذ دفتة ، أن تجوس خلال الدار ، تخترق ذلك السَّجف
المتكاثر من الصمت والظلام ؛ كأنها شيطان مريد يهيم في
كهفه على روحين سجينين !

وأخيراً شاءت إرادة دفتة ، أن توقد شمعة على رأس زوجها
المريض ، زاعمة له أنها تريد إمتاعه ببصيص من النور ، قبل أن
يُحرم في مطلع الفجر نور الحياة ، ليستقبل إلى الأبد ظلمة
القبر ! ...

وعلى الرغم من ذلك السكون المطبق ، كان كل شيء في كهف
الشيطان يشعر بتيار خفي من اليقظة والانتباه ...
يا لهذا الليل العجيب في ذلك الكهف الأسود !
لم يعد ليل نوم وراحة وسكون ، ولم يعد مثابة اطراح الهموم ،

ونسيان للمتاعب ...

إنه الساعة ليل تحوم في جوانبه الذكريات الاليمية ؛ كأنها
الخفافيش تدف بأجنحتها مذعورة غصبي ...

وما زالت تلك الخفافيش تنقل في حجرات الدار ، حتى
بلغت مأوى « بهية » ، في ركن من أركان الحبس ، فما إن أحدثت
بها تضرب رأسها في شدة ، حتى هبت « بهية » تطلق من حلقها
صرخة مكروبة ، تتبعها صرخات ، لا تدري أهى تأوّه وتوجّع ؟
أم استغاثة وتضرع ؟ ...

واندفعت في بكاء وإعوال ، فبلغ عويلها سمع عابر سبيل ،
فوقف يتطلع إلى نوافذ الدار هنيئة ، ثم تهد ، ومضى في طريقه
يردد :

الدوام لله يا د عثمان أفندي ، ا

وأقبلت « فتنه » ، على حجرة « بهية » ، محتاجة مُحَنِّقة ، فما إن
لمحت « بهية » ، شبحها ، حتى هجمت عليها هجمة مستبسل مستبش ،
وما أسرع أن التحم الخصمان ، ولج بهما النطاعن والتقاتل في
صمت لا يقطعه إلا هدير الأنفاس ...

وانجلت المعركة عن « بهية » موققة مكمة الفم ملقاة على
الأرض تتلوى في جهد وإعياء ... وأما « فتنه » ، فواقفة مجنحة

الذين اعين ، يتفصد وجهها عرقا... وبعد قليل شرعت تقول متلاحقة الأنفاس :

لعنك الله من شيطان في ثوب إنسان ... شدا ما كنت تُخدوعة بك ، وحقا لقد استطعت أنت في هذه الفترة الماضية أن تخفي عنا ما انطوت عليه نفسك من أذية وشر... ما كان أمهرك في الظهور بمظهر المسالم الوديع ، ولكن ها قد برح الخفاء ، وانكشف الغطاء ، فلم يكن بدم من أن آخذك بالشدة... ولست ألام على ما أفعل ، فالشر لا يُحسَمُ إلا بشر...

وتركت « فتنة » الحجر . واستعادت الدار ما كان فيها من وحشة الصمت الثقيل . واستأنفت خفافيش الذكريات سعيها في جوانب الدار تضرب الرؤوس بأجنحتها الشداد...

وكان الليل يسرى... يحسّ السجينان — « عثمان أفندي ، و « بهية » — سُراه بطيئا بطيئا ، كأن دقائق الوقت تشودها القيود والأصفاد ، بل إنهما ليشعران بأن الزمن يدركه الإغواء ، فيقف بين الحين والحين جامداً فاقداً الحراك ... على حين تشعر « فتنة » بأن الوقت يمضي قدما ، كأنما يقطع مراحل الليل وثبا ، فتعجب لسرعته ، وتخشى أن يفوتها تحقيق ما اعتزمت من أمر ، في مطلع الفجر ... في تلك الساعة المرهوبة التي تراها مفصلا

بين حياة وموت ا

ذلك كان شعور أهل الدار نحو الزمن في سيره ، والزمن منطلق لطيبته ، يُلقى على هذا الكهف العجيب ظلالاً ابتسامته الخالدة ، تحمل في تضاعيفها السخرية والاستهزاء ا

وكان المريض قد أخذته سنة من النوم ، فأنشبهته حركة طارئة فاجتهد على بصيص الشمعة المتخاذل أن يقين ما طراً ، فطالعه مشهد انخلاع له جنانه ، إذ رأى « فتنة » تدخل الحجرة وهي تخرج جُسماناً موثقاً يَنددُ عنه أنين خافت ، وما لبثت أن ألقت بالجسمان على مقعد قبالة « مرقد المريض ...

وعالج « عثمان أفندي » أن يُحدد بصره ، حتى لكان حَدَقَتِيهِ تَهْتان بالانفكاك عن مُحجِرَيْهِمَا ، ثم شق عليه ما يرى ، فها كَمَّ أن أطبق جفنيه من كَجَزَع ...

ووقفت « فتنة » وسط الحجرة ، وقد وضعت يديها في كُفْرها ، وبدت مرفوعة الهامة ، براقة النظرات ، مربدة الوجه منفرشة الشعر ، تتخايل عليها الظلال مترافضة خلف بصيص الشمعة الخائبة ...

ياله من شبح راعب مفزع ا

لكانه كائن من عالم بعيد ، لا يَمُتُّ بصلة إلى ظهر الأرض ،

عالم الخوارق والطلاسم والأساطير ...

وإن المريض ليرتعش جفناه ، فتنفذُ منها نظرة إلى ذلك
المشهد ، فسرعان ما يخيّل إليه أنه قد انتقل هو وزوجته إلى
الدار الآخرة ، وأن المكان الذى يحتويهم الآن ليس هو إلا ركناً
من أركان جهنم يتلقون فيه عسير الحساب ، وأليم العذاب !
وعلى حين فجأة ، ارتفع صوت د فتنة ، قائلاً :

الفجر يتدانى والموتُ يقترب ... وإني امرأة أعرف ما
يليق ؛ ولا أقصر فى أداء واجب ... وكان حقيقاً بى أن أجمع بينك
يا د عثمان أفندى ، وبين زوجتك الآخرة فى ساعة الوداع ..
ثق أن ضلوعى لا تنحى على ضعف . وإنما أنا مخلص صافية غاية
الإخلاص والصفاء . وليس الذى يبدو من حدّتى وعنقى إلا
عارضاً على الرغيم منى ، فأتما تَضْطَرُّ أنى إلى ذلك أشد
الاضطرار ... هذه د بهية ، أمامك يا د عثمان أفندى ، فتملّ
مرآها ، وتمتّع من ربابها ، ولتغتم هى أيضاً هذه الفرصة
فتشاركك فى التلى والتمتع ، ولكن إياكما أن تنسيّا التكفير عن
خطاياكما ، والاستغفار من ذنوبكما ، من سوء معاملتكما لإنسانة لم
تدلكما بأذية ، ولم تُردّ بكما أى ضرر !

وصمتت المرأة لحظات ، ثم استأنفت تقول ، وقد بدأ صوتها

تشيع فيه نيرات من التحسّر والتحزن :

ماذا كان منى يا د عثمان أفندى ، حتى تجزىنى جزاءك القاسى ؟
 ألم تذق على يدى شهيد السعادة حُلواً مصفى ؟ اذكر سوائف
 أيامى معك ، ووازن بينها وبين حياتك من قبل ، فإنك واجد أنى
 كنت لك يُمنا وبركة ... أنى طوفك أن تنكر حى إياك حبا
 ليس وراه مطمع لمستزید ؟ وهل كان فى استطاع امرأة أن تحبك
 فوق ما أحبيتك ، وأن تكون بك متلطفة كما تلتفت بك ؟
 لا تخدعك الظواهر المزورة ، والكلمات المعسولة ، من تلك التى
 ضممتها إليك ، فأنت أعقل من أن تجوز عليك مثل هذه الأخاديع ؟
 وهنا أخذ صوتها يرق ويتحنن وتنتابه رعشة ، وإذا هى تقول :
 مهما يكن من أمر فإنى لك مسامحة ، وكذلك سأحتك أنت
 أيضا يا د بهية ، ... ليس لى إلا أن أوثر العفو فى هذه الساعة
 المرهوبة التى تقترب فيها طلائع الموت ... ليس لنا جميعا فى هذه
 الساعة يا د عثمان أفندى ، إلا المودة والتصافى ... ليس لنا إلا
 إسبال الستر على ما كان ... فى هذا الوقت الفاصل أجاهرك فى
 غير خجل ولا حياء ، أمام ضرقى ، بأنى ما زلتُ أجبك ... هذا
 حق ... فابرح حى إياك يعمُزُ جوانجى ا ...
 وشرقت د فتنة ، بدمعها ، فإذا بها ، على حين فجأة ، تهبط

على تحافة السرير ، وترفع الصمام عن عاطفتها المكبوتة ، فاستبدت بها نوبة جياشة من البكاء ، وقد دست وجهها في ثياب الفراش ، ويداهما متشبثتان بجواشيه ...

وأخيراً رفعت « فتنة » رأسها ، وقد ذكرت شيئاً أثارها ، فتلفتت جنرة تهمهم :

يا لله ! ... يا لله ! ... شديداً يهمل الإنسان واجبه في سبيل عاطفته ... ولكن الزمن لا يعرف للعاطفة معنى .

ونفضت صلبة القامة ، خفيفة الحركة ، وقد أحست كأن أثقالاً كانت تنوء بها قد وضعت عنها . وما أسرع أن كففت عبراتها ، وستبان على محياها إشراق ...

ووقع بصرها على الكؤومة المطروحة على المقعد ، فقصدت قصدها ، وشرعت تحلل وثاقها ، وتنزع الكمامة عن فمها ، وهي تهيم :

ليس الوقت يا دمية ، وقت حقد وانتقام ... نحن الآن على عتبة الموت ، فلنغسل أرواح الماضى ، ونعد أنفسنا لمرضاة الله ... هنالك في العالم الآخر سنحيا ثلاث نساء في عصمة زوج واحد ... هذه إرادة الله .. ولكننا سنحيا حياة هائلة : لأن الدار الآخرة لا مكروه فيها ولا هوان ! ...

وأضحت بهية ، حليلة لا قيد ولا وثاق ... ولكنها ظلت على
مقعدها بلا حراك ... أسمعت قول د فتنة ، ووعته ؟ أم لم تملك
له سمعاً ؟ أفى غيبوبة هى ؟ أم دهاها شىء أخرجهما من
عداد الأحياء ؟

والتفتت د فتنة ، إلى د عثمان أفندى ، وهى تقترب من فراشه
وتقول :

ستجمع بين ثلاث زوجات ، ولكنك لن تعرف إلا العدل
بينهن ، فتكفل لهن جميعاً عيشة رغيدة ؟

وانحنى عليه تحتضنه وتقبله ، ثم فارقه فى ثبات وسكينة إلى
النافذة ، ففتحها ، فأنتست لمحات السحر تضيء الأفق ، فأغلقت
النافذة وانجهت إلى عقب الشمعة الهزيلة ، فتناوأت بين أصابعها ،
وألقت به على صرة من متاع كانت عن كسب من فراش الزوج ...
وما أسرع أن اندلعت السنة اللهب !

واندثت د فتنة ، إلى امرأة على منضدة الزينة ، فجعلت على ضوء
اللاهب المتوهج تمشط شعرها ، وتصففه ، وتطريه بالدهان ،
وتستكمل زينتها بالكحل والتعطر ...

وبلغت من ذلك ما ربهما على عجل ، وخطت إلى الباب
ركينة القدمين ، وعيناها تتيه نظراتها كأنهما تجوسان خلال

أُفق بعيد ...

وبلغت الباب ، فأخذت بمصراعه ، فتفتحه ، وأشارت بيدها
كانها تأذن لطارى بالدخول ...

وعادت إلى جانب السرير تجلس على الأرض ، وقد توغلت
النار تآتى على الفراش ، والمرأة تحديق أمامها ذلك التحديق التائه ،
وقد تخايلت على فيها بَسْمَة عجيبية ، لا تدرى : أبَسْمَة روح من
الملائك هي ؟ أم بَسْمَة شيطان مريد ؟ .

وكانت شفتاها تختلجان بهذيان غير مُبين ...

ابتسامه خبيثة، وأخذ يرمق جمع الرفاق بعينين ملؤها السيطرة والاستطالة. وتفرق الجمع في سكون، كل يسعى إلى زكنه المختار... وعجب «أبو المعاطي» من نفسه: كيف استطاع أن يذلّ هذا الطاغية، وأن يقهر ذلك البنيسان الشامخ، وأن يجعل رأسه في مواطنه الأقدام؟ ولكنّه تذكّر أطراف حوادث وقعت له في الحقل، فرة كبح جماع ثور أفلت من محرائه، ومرة أدار ضاقية ثقيلة بقوة عضديه... واتسعت ابتسامته، حتى أضاعت جوانب محيائه، ولم يبال به المقام حتى أحس قدمين تدبان عن كئيب منه، فطأ رأسه، وقاص قسبات وجهه كالضارع المتألم، وتتم بالفاظ حبيسة. فسقطت قطعة النقود في كفه، فأودعها من فورّه جيبيه، واستأنف تتمته آمناً...

وفي غداة اليوم التالي، هبّ «أبو المعاطي» من نومه مبكراً، وحجّل إلى مكانه من المسجد، فما إن أشرف عليه من بعيد حتى لاحظ له العمامة الخضراء تحتل موضعه المكين، فاندفع مهرولا وقد شد على هراوته، وإذ قارب المكان وجد شيخ أمس متمكناً في جلسته، تحبّط به شير ذمة من أتباعه، فاتجه «أبو المعاطي» إليه صامتاً، وما شعر إلا أن امتدت يده في قساوة وغلظة تأخذ بثلايب الشيخ. وتقصيه عن مكانه. ولكنه لم يكذب يفعل، حتى

رأى الاتباع يتألبون عليه ، ويتقسمونه ضرباً وجيعاً ، ولكمّاً شديداً ، فأحس ثقل الوطأة عليه ، وتوقع الهزيمة توشك أن تحل به ، ولمعت في مخيلته حسنات النقود وهى تنهمر على حجره ، وتمثلت لخياشيمه روائح الشواء يطعمه شياً ، فإذا المرأة تستيقظ في يده غصبي . وفي خطفة البرق راح يخبط بها في الجمع كخبط عشواء ، مشمراً في متابعة الضرب ذات اليمين وذات الشمال ، فهاهو إلا أن تقوض الجمع عنه ، وولّوا فراراً منه ، غير مصيخين إلى نداء الشيخ واستغاثته . وتقديم قزَم من الاتباع الذين لم يكن لهم في الماركة نصيب ، فتقرب من «أبي المعاطي» وتثبت بشيابه ، وهو يصيح :

فليحكم الله ... ليس للأمر إلا أنت ا ...

وهنا تعالت صيحات تؤيد قول القزَم ، وأبصر «أبو المعاطي» الصائحين يتدانون منه ، ويتلطفون به ، وينفضون الغبار عن جلبابه . فعاد «أبو المعاطي» يتنظر في خطوات وئيدة إلى مكانه المعبود ، واقتعده مزهواً منتفخ الصدر ... فأما ذو العمامة الخضراء ، فقد كان يرتد إلى الناحية القصية التي لاذ بها أمس ، وارتقى فيها متكوراً ينكش بعضه في بعض ا ...

— ١٣١ —

وفي اليوم التالي ، تجلسي « أبو المعاطي » ، قبالة المسجد وهو يضع على رأسه العمامة الخضراء الضخمة ، ويرتدي الجبة المتكاثرة الرقاق ، المختلفة الألوان . وعلى صدره السُّبُحَةُ ذاتُ الحبات المائة الغلاظ . وقد التف حوله الاتباع يحبونه تحية التودد والإكبار ... ثم جعل يتهادى في مشيته ، حتى وصل إلى مقعده للظليل ، فاطمأن فيه ...

وطاف برأس « الشيخ أبي المعاطي » ، طيفُ والده ، وهو يسأله عما فعل ، وعما أذخر من النقود . فشعر بالهراوة تتحرك بين أنامله ، فصدقَ بها الأرض بضع . دقائق وقد كُشِرَ عن أنيابه . وانبعثت من حلقه قهقهة شيطانية ساخرة ...

زَوْجٌ وَضُرَّتَانِ

كان عثمان أفندي ، رجلا وثيق الأركان ، أميل إلى البدانة ،
محقق الوجه من أثر الشراب ، ولكنه حسن الصورة ، أنيق البزة
ذو شارب مسنون . وعلى الرغم من أنه ذرّف على الستين ، فقد
سلبت أساريه من عجب السنين ، إلا ما تلمحه من تلك الرعشة
التي تنتظم يده حين يمدّها إلى الكأس ، أو يشير بها للنحية .

وقد ألبّ الناس أن يروا عثمان أفندي ، مُسلّم الأوصال ،
فلم يكن يدور في أخلادهم أنه يقع يوماً في إسهال المرض . فلا
عزّرو أن تسرع إليهم الدهشة حين ترمى إليهم أن الرجل أصابه
الفالج بغتة ، وأنه نال منه أبلغ منال ، حتى لقد أشفى على هلاك
وشيك ، وكأن الموت مطوّف يبابه ، بهم بأن يطرقه ...

عجب الناس أشد العجب عما سمعوا ، فإنه ليقر في أذهانهم أن
الموت يهادن أمثال ذلك الرجل المتين المهيّب ، فكانوا إذا مرّ
أحدهم بداره . همهم قاتلا :

الدَّوَامُ لِّلَّهِ !

كان عثمان أفندي ، يقيم مع زوجته في داره التي يملكها

في حى " السيدة زينب ، ... وقد رضيت زوجتاه أن تضمهما دار واحدة في طاعة ذلك السيد الميمى . ولم يكن أحد يرتاب في أنه السعادة ضاربة على الدار رؤاها ، وأن أهلها يحيون في أمن ونعمى ، فبذلك كانت تجرى أحاديث الخلق ...

وإذا كان لكل شيء آفة ، فإن الآفة التى أصابت « عثمان أفندى » ، أنه لم يُرزق بالذرية ، فظل في الحياة فرداً ...

وقد أنعم الله على الرجل بدخل كريم سوّغ له أن يعيش مرفّها طيب المأكل والمشرب ...

ومهما يكن من صلافة الرجل فيما يرى ، وعناده فيما يريد ، فقد طبع على سخاوة الكف ، وكرم البذل ، لا بالوجه في تنعيم زوجتيه وإقرار أعينهما بما تشتهيان من متاع .

وإحدى زوجتيه تدعى « فتنة » ، قطعت في طريق الحياة نصف قرن ، واستأنفت السير لا يظهر عليها إعياء ... وهى فارعة القامة عجفاء ، قوية العضلات ، تستبين وعورة أخلاقها فيما تبعته عينا من نظرات نفاذة عنيفة ، وفيما يرسم على وجهها من قسرات جبهة قاسية ...

كانت في شبابها ذات حظ من ملاحه ، لبقة بالخطر والتشنى ، بصيرة بتصويب النظرات من جفن مكحول ، يدفعها المرح إلى

— ١٣٥ —

فنون من التدلل المطوى على إغراء ...

فما كاد عثمان أفندى ، يتعرف إليها حتى استجابت لها نفسه ،
وهذا فؤاده ، وما هي إلا أن تم بينهما زواج ، فوهبته هي قلبها
أجمع ، وفنيت في حبه : فنعم في صحبتها بعيش صفاء وهناء .
يَسْدَأْن الدهر كما يقولون قُلُوبٌ ، لا تدوم له حال ، فبعد أن
اشتف عثمان أفندى ، عصارة الحسن من « فتنة » واستمتع بما
لها من شباب غض ، لوى رأسه عنها ، حين أحس أنها تحطت عصر
الفتح والازدهار ، ولم يبق لديها ما تمنح من عطر الزهرة الفواح ،
ونفضرتها البهيجة ...

مضى « عثمان أفندى » يتطلع إلى زهرة جديدة فوق اختياره
على « بهية » ... وهي فتاة في رَيْق الشباب ، وريبع الحسن ،
فزوجها ، وحملها إلى داره ، ولكنه أبقي مكانة الصدر لزوجته
الأولى .

ولكن ما نَفَحُ « فتنة » بأن تكون صدر الدار ، وأن يكون
لها المقام الأول ، وهي تحس بأنها شورك في رجلها ، وفقدت
قلبه ، بعد أن أفنت أكرم عمرها وفاء لزوج لم يُؤثر الوفاء
ولقد راب « فتنة » من جديد أمرها أنها قد استشعرت
عاطفة غريبة لا تفتأ تنمو ، وإنها لتزداد على الأيام من تضرّم

وانقاد... أهى عاطفة ذلك الحب الأصيل يريد أن يظل المالك المسيطر ؟ ... أم هى عاطفة حقد مكين ينزع إلى التشنى والقصاص ؟ ... أم هى مزاج من عاطفتين متناقضتين من مقت وتعلق ، اتخذ من سريرة « فتنة » مسرحاً للتقابل والصراع ١٩ ...

لم تلبث « فتنة » حين شورك في رجلها أن بدأت في الحياة عهداً جديداً لم يكن لها به عهد ، عهداً تقاسى فيه ذلك الشعور النائر الحائر الذى لا يفتر عنها في صحو ، ولا يُشفق عليها في أحلام ...

إن « فتنة » لتذكر أنها لما آفست نذر هذه العاصفة ، وفطنت إلى أن قلب زوجها أخذ يشره إلى شيء جديد ، لم تدخر وسعاً في سبيل الاحتفاظ بذلك الزوج ، واثنيه عن عزمه ، فابتغت كل الوسائل من رعاية وتحن تارة ، ومن توعده وتهديد تارة أخرى ، فما أجدت وسائلها في التأثير . وكيف لها أن تطمع في إذعان « عثمان أفندى » لإرادتها ، وهى التى ما إن يقع بصرها على شارب المسنون يتراقص ثائراً على شفثيه ، كما يتراقص شارب الأسد إذا تهاى للوئب والانقضاض ، حتى ترى نفسها قد عاجلتها استكانة واستسلام ١٩ ...

وأكبر ما آلم د فتنة ، وأوغر صدرها أن زوجها لم يكتف
باتخاذ ضرة لها ، وإنما أضاف إلى ذلك أنه أسكن تلك العدوّة معها ،
يظلمها سقّف واحد ، غير متورّع عما يلحقها في ذلك من
بالغ الأذى ...

أما الرجل فإنه في الحقّ ما تعتمد زوجته الأولى بإهانة ، ولا رضى
لها المذلة ، ولا أحسّ بأنه يأتّم في هذا الصنيع ، وإنما كان عميق
الإيمان بأن الجمع بين الزوجتين أمر لا تأباه سنة الحياة ، ولا تنكره
شريعة الله !

وما له يحشّم طاقته فتح بيتين ، ويقسم نفسه في مكانين ؟ إن
زوجتيه كاتيهما بعض أمرته ، ومن خير الأسرة أن تكون في
كسّف عائلها مجتمعة ، وبظله محتمية ...

وما لزوجه الأولى تتجحد جميله فيما اتخذ من خُطة . ولا تقر
بفضله فيما آثر من عمل ؟ لقد كان في مُسكنته أن يُباقي عليها كلبه
الطلاق ، وأن يفسّح البيت كله لزوجه الجديدة لا يشركها فيه
شريك ، ولكنه استنكف أن يفعل ذلك ، وفاء لماضيها معه ، وعرفانا
لحقها عليه : وأبت نفسه إلا أن يوفر لها الكرامة ، ويقرّها لها
بالصدارة ، فأبقى عليها سيدة بيته الأولى ...

وما كان لشيء ألا يتم وفق إرادة عثمان أفندي ، فقد

انتلفت أسرته الصغيرة تحت جناحة ، وجرت الأمور في
أعنتها كما يهوى ، ورفرف الأمن والسلام على بيت الرجل ،
حتى تناقل الناس حديث تلك الأسرة التي تُعدّ طرازاً فريداً
للصفاء والرفاء ...

توخت « فتنة » في العيش مسلماً حميداً لم تر عنه مَحيداً ،
ذلك هو إحسان المعاملة لضررتها « بهية » ، وقد أعانها على ذلك
أن « بهية » كانت فتاة خاملة النفس ، خَوَّارة العزم ، أَجْنَحَ
ما تكون إلى السكينة ، أَجْنَى ما تكون للزراع ، وكانت أعصابها
متراخية ، وبنيها متداعية ، على الرغم مما تكسى به من سمانة
وامتلاء ...

اطمأنت « بهية » بما لها من مكانة في قلب الزوج ، وآنست
أنها مطمئع عينيه : ومألف روحه ، فماذا وراء ذلك يدفعها إلى
التطلع ؟ إنها لتنزل طيّبة الخاطر عن إدارة البيت ، ورعاية
شئونهِ ، للزوجة الأولى « فتنة » ، وفي ذلك إعفاء لها من مشقة
العمل ، وكلفة التدبير ، فتفرغ بنفسها لقلب زوجها ' تنفّ عليه
المتعة والإيناس ...

ولعل « فتنة » كانت تحاول أن تناسي ذلك المثل السائر :

لا جديد تحت الشمس !

-- ١٣٩ --

والتاريخ يعيد نفسه !

أليس الذى حدث اليوم إنما هو تكرر لما حدث معها بالأمس ؟

بدأ « عثمان أفندى » حياته زوجاً لامرأة لم يسكد شبابها بولى حتى وقع بصره على « فتنة » فى صِباها النضر ، فهام بها وأضافها زوجاً ثانية ، فأذعنت تلك الزوجة الأولى لما كان ؛ كما تدعن « فتنة » الآن ... ولكن تلك الزوجة الأولى عاجلتها المنية ، فانتشلتها من جحيم الفيرة الخرساء ، وخلا « لفتنة » وجه الطريق ! ...

لا تستطيع « فتنة » أن تنسى تلك المأساة ، وكلما ساءلت نفسها :

أَيكون لها مثل ذلك المصير المشئوم ؟
أحسنت وقدة الحمى فى دمها ؛ من أين لها أن تطيق ترادف الأيام تسقيها السم الكريه قطرات ؟ ...
لبثت تفكر . وما فتئت تفكر ، دون أن تهتدى إلى ما يريح فؤادها من ذلك العذاب ... ولكنها ملكت أن تكبت شعورها بما أوتيت من صلابة الطبع ، وجرت قافلة البيت فى جو ظاهره الهدوء ، فأيقن « عثمان أفندى » وهو يطوى أيامه بين زوجته ،

أنه قد فرغ من مشكلة الضرتين ، وانتصر برجوانيته على تلك
الصغار التي تثيرها غيرة النساء ،

وكان عزيزاً على « عثمان أفندى » وهو المؤمن بسطوته ،
المعتر بهيمته ، أن يشق بالنظر النافذ ذلك السطح الناعم الأملس
الذى يغشى بيته ؛ ليستجلى تلك التيارات المتدافعة تعلو وتهبط
لا يَقرّر لها قرار ، فحسبه ما يراه حـوله من شيوع الأمن
واستتباب النظام ... !

لم يُسعنَ الرجل بما كان من ذلك الانقلاب السلبى الذى لحق
بزوجه « فتنة » : ذلك الانقلاب الذى جعل من تلك المِمرّاح
الطروب امرأة رزينة صُموتاً صارمة القسمات ...
لقد هُزل وجهها ، فازداد طولاً ، وضمُرت عودها فتقوس
ظهرها ، وأصبحت تمشى تحنية كأن برجلها قيداً ...

لقد انطوت على نفسها تحتضن حقدّها الواغل ، وتتعبدّه
بالرعاية والصون ؛ كأنها تخشى عليه أن يذهب هباء .

لقد آثرت أن تحيا فى توحد وانفراد بجوار نافذة حجرتها
المطلّة على الطريق ، ففى تلك الساعة بعد الساعة مدّية بأنظارها
فى سهوم ؛ وما كان بصرها فى الحق يقيد شيئاً مما تراه العيون ،
فإن عينها كانتا مصروفتين إلى تصفح مشاهد أخرى من حياة

ضرتها الاثيرة عند الزوج ، وما تجده تلك الضرة الرخوة
المكسال من حُظوة وقبول ...

وما كانت « فتنة » تقنع بما تعيه ذاكرتها من حقائق تلك
المشاهد في حياة البيت ، تلك المشاهد التي كانت تترامى فيها
« بهية » مكرمة منعمة ... وإنما كانت « فتنة » تستعين الوهم
والخيال ، فتبتدع الاحداث ، وتؤلف الصور ، وكلها أوغلت في
التوهم والتخيل لجت بها الرغبة ، واشتد الظمأ ؛ كما تماهى النار ،
إذا ما زبدت وقوداً ازدادت من تسعر واضطرام ...

لقد كان بلاء « لفتنة » أن ترقب « بهية » في دقائق حياتها ،
وما لها من غدوات وروحات ، فما كان يغيب عن ملاحظتها
شيء مما تفعل ، ولا سيما حين يقدم الزوج في مواعيد أوبته
إلى البيت ، واستقراره فيه ؛ إذ كانت « بهية » تأخذ زيتها
ماوسعها أن تأخذ ، ولا تفتأ دانية من الباب ، تأهباً للاستقبال ،
تلقى السمع إلى خفق أقدام السابلة في يقظة وتنبه ... فإذا رفعت
خطا الزوج المنتظر ، تلك الخطا الثابتة المصحوبة بقرع العصا
ذات المقبض العاجي ، شوهدت « بهية » قد تورد محياها ؛ واقتر
نفرها ، وأمسكت بمصراع الباب تفتحه للقادم الحبيب ؛ فما تكاد
عين الرجل تقع عليها ؛ حتى يتهاى ويتطلق ؛ ولا يُعَسَم أن يتلقى

« بهية ، بين ذراعيه ، وماهى إلا أن تغشاهما موجة من المداعبات والمفاكهات وفضول الأحاديث .. »

ذلك كله كانت تحرص « فتنة » على أن تراه من خصاص الباب ، وأنفاسها تتوالب ، وأوصالها تنتفض ، على حين تستمرى تلك النشوة الغريبة ، نشوة إمداد حقدِها الكمين بأسباب الغداء والنماء ...

وكم من مشاهد على هذا الغرار ، أبت « فتنة » إلا أن تستمتع برآها ؛ لتذكى بها ما بين جنبيها من بغضاء ...

وكان الليل يفد على « فتنة » أقى ما يكون همًا وويلًا ، ذلك الليل الذى هو ميلاد المحبين ، ومثابة المتعة والإبناس ... إن « فتنة » لتقضيه ساهدة يقظى ، يتلذع فؤادها على مثل الجمر ، لا يرحمها القلق لحظة ، فهى حيرى تارة تذرع حجرتها فى احتياج ، وتارة تخف إلى باب حجرة زوجها لتسمع وتترقب ... وكانت تجيش بين أحنائها رغبة جامحة ملحاح ، هى أن تقتحم الباب ، فتتزع تلك المرأة الرخوة المكسال من بين أحضان الزوج ، ثم تسقط عليه فتطوقه بذراعيها العنيفتين ، وتُنحى عليه تقييلا كأنه نهش الأفاعى ، حتى لا تُبْقِ فيه على أثارة من أنفاس ... !

تلك هي دخيلة ما كان يجرى في بيت عثمان أفندي ، ،
 بيته الهاديء الوادع الذي يحتوى أسرة يحسب الناس أنها
 تخفق عليها راية الأمان ؛ وتشيع بينها علائم للودعة والصفاء ...
 و حان اليوم الذي حُمل فيه عثمان أفندي ، إلى البيت ، وقد
 ضربه الفالج ، فأصبح نصف حي أو نصف ميت ، بل إنه لميت
 حقاً ، و اكن الحياة نسيت في بعض أوصاله نفاية من نفائتها
 ستزول عما قليل ...

وفي تلك الفترة شرعت المأساة الكامنة في البيت ترفع عن
 وجهها النقاب ...

لم تكند فتنة ، ترى ماحل بالزوج ، حتى سيطرت في لحظة
 على كل شيء في الدار ، بأذلة ما في الوُسْع من عزم وحزم ،
 فلكت الموقف ، وشدت الزمام ...

كان ممثلاً في ذلك ممثل القائد الأملعي الذي لا يكاد يأنس
 اقتراب نهاية الطاغية في أمة ، وانفلات الأمر من يديه ، حتى يبادر
 بإقامة نفسه مقام هذا الطاغية ، يدير الأمر ؛ ويقمع الفوضى ،
 ويضرب على أيدي العصاة ...

سرعان ما ألفينا فتنة ، تسدل ستارة غليظة بين البيت
 وما وراءه من العالم الخارجي ، حتى إن بهية ، لم تكند

تفريق من ذهولها حتى وجدت « فتنة » قد حملت الزوج إلى حجرتها ؛ فاختصت به ، وتولت رعيه وتعهده ؛ ووقفت دون بابه تمنع الوصول إليه .

وَشَدَّ مَا تَطْلَعُ « بهية » إلى أن تتفقد الزوج ؛ أو أن تسأل عنه ، أو أن تتعرف ما طرأ من شأنه ؛ فإذا « بفتنة » تفجؤها برد حاسم مقتضب ، وقد انعقدت على جبينها أسارير صارمة ، فلا تجد « بهية » مفيضاً إلى كلام ، ولا تلبث أن تراجع مخذولة مقهورة ، لا طاقة لها إلا بعين تدمع ، ولسان يَلْهَجُ بالضراعة والغوث ...

فأما الزوج فكان فاقداً للنطق ، فاقداً الحراك .. وقد استحال في لحظة من طود شامخ يهتز فيزول الأرض تحت قدميه ، إلى حطام ورُمُفات ...

هذا الإنسان العتيّ الجبار الذي كان يمشى فتخطف به العيون ، إكباراً له ، وإعجاباً به ، لقد صار الآن في مضجعه كنوامة من لحم وعظم ، لا سِمَةَ عليها من مهابة الحياة .
لم يبق له من أسباب الاتصال بالعالم الخارجي إلا بصره يبرق ، وسمع يتلَقَّط ...

وأى بصر ؟ ... إن هو إلا نظرات كاينة زائغة ، كلما اجتهد

شَلاَثِي عُمَرَ الْحَيَامِ

في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ابتدع ، النادي الأهليّ ، في القاهرة ، بدعة جميلة ، تلك هي أن يقيم في الفينة بعد الفينة حفلات ساهرة ، كنتُ أحرص على شهودها ، ما وَاَتَنَّى الفرص ، وانفسحتُ لى الأوقات ...

وكانت هذه الحفلات طريفة في مجتمعنا المصرى ، ونشاطنا الفنى ، بما تزدهى به من مشاهد فى الغناء والتمثيل ، مختلفة الشكول ...

وقليلا ما كنا نجد فى هذه الحفلات ممثلين أو مغنين محترفين . فجُل من كانوا يقومون بتلك المشاهد ، هم من كرام الهواة الذين شغفهم الفن الجميل حبّا ...

وأظهر ما كانت تمتاز به سهرات ، النادي الأهليّ ، فى ذلك الزمن ، طابع الإيناس الذى يَشيع بين النُّظارة . كأنهم أبناء الأسرة الواحدة . على تفرّق ما بينهم من المناسب والمنازع ... سعدتُ بأُمسيّة من تلك الأماسى الشادية . وتبوّأتُ مقعدى فى تلك الردهة التى ليس لها من مظاهر المسرح إلا منصة

صاذجة أقيمت في صدر المكان . وليثُ أتتبع المشاهد ، وفي
يدى صفحة البرناتسج أقلب فيها النظر بين فترة وفترة .

وأوشك أجد المشاهد أن ينتهى ، فأرسلت النظر في البرناتسج
أستوضحه ما سيحدث . فقرأت :

« ثلاثى عمر الخيام ،

يقوم به « على أفندى المستكاوى وكريماتاه » .

وأحسست أن ابتسامة عابرة تتخيل على فمى .

« على أفندى المستكاوى ، ...

وهل أنساه ؟

إنه ضابطنا فى المدرسة الابتدائية فى ريتق الصبا ...

ولمعت فى خاطرى صورة ذلك الضابط الظريف الذى

كان يُحيل جو المدرسة المنحفظ المزمّت إبتاساً ومراحاً

وبهجة ...

كنا نعلم أنه رجل « ابن حظ » وهبه الله جانباً من حسن الصوت ،

وآتاه ذوقاً سليماً فى تأليف المقطوعات الغنائية وتلحينها ...

وكان يدهاى إلى أسماعنا أنه سمير الأصدقاء ، يُحيي لهم حفلاتهم

بالغناء والأفاكية . وكثيراً ما شهدناه قد تحطّر فى فناء المدرسة

يرسل ترنياته فى الأفق ...

ولعل أعجب طرائفه أنه كان إذا نادى أسماء المعاقين من التلاميذ في مُنصرفِ النهار ، وقف ينادى كلا منهم في نعمة خاصة باسمه ، كأنه يضع لمختلف الأسماء مختلفاً من الإحسان ، فيثير بين التلاميذ رَوْحَ الطرب في أخرج الأوقات أوقات الحساب والعقاب !

لا عجب إذن أن يكون « على أفندى المستكاوى ، بطل الشهيد المسمى » ثلاثيَّ عمر الحيام ، ... ولا بد أن يكون مشهداً حافلاً بالمفاكهة والإطراب .

ما أحبُّ إلى نفسي أن أتسهم تفحة من ثفحات الماضي يرف بها ذلك الضابط الأنيس !

وأحسست حركة على المنصة ، فأشرعتُ عيني ، فطالعي على الفور « على أفندى المستكاوى ، يقتعد كرسياً ، وعن يمينه ويساره صبيَّتان مائلتان ...

كان يرتدى جبة ساذجة ، وعلى رأسه عمامة كوترها كما اتفق ، وهو يحتضن عوداً يداعب أوتاره ...

ولم يكن في المشهد من معالم « عمر الحيام ، إلا تلك الجبة العمامة إن كانتا من معمله .

فأما الصبيَّتان ، فكاتتا في لبؤس أبيض ناصع قهقراض ،

يراد به أن يمثل زياً شرقياً قديماً ، وما هو منه في كثير ولا قليل ...
وأول ما راغنى من هاتين الصبيتين قوة الشبه بينهما كأنهما
توأمان ، وذلك الحفر يكسو وجهيهما الوسيمين اللذين يفصحان
عن أصالة منيت ...

كانت كلتاها زهرة لما تنفتح عن كبتها : تحرص على أن تخزن
عطرها لنفسها ، لا تدعه مستباحا لكل من يشتم ...
وشرع العود يخفق بأنغامه الرقاق وطفق « المستكاوي أفتدى »
يساوقه بصوته ، وما هي إلا أن تستجيب له الصبيتان عند كل
مقطع ...

وكانت الأغنية تجمع بين لطف المعنى وعذوبة التلحين ، فأما
الاصوات فلم تكن تبلغ مستوى الجمال الفني ، ولا سيما صوت
صديقي الضابط القديم ... فقد كان على الرغم مما يبذل من جهد
مُستلم الصوت ، متقطع الأنفاس ...

على أن المشهد ، في جملة ، لقي استحسان النظارة ، فلم يكده
ينتهى حتى تجاوزت أرجاء الردهة بالتصفيق ...

ولا ريب أن ما لقيه المشهد من الاستحسان مرده إلى تلك
الروح اللطيفة التي تسرى في الأغنية ، وإلى ذلك الصفاء الذي كان
ينبعث من تيمك الصغيرتين ، وهما تشدوان ...

وأعقب هذا المشهد فترة راحة ، وبعد لحظات رأيت المستكاوى أفندى ، وقد نضا عنه لبُوسٌ « عمر الخيام » وبدأ في زيه المألوف ، مصطحبا فتاتيه إلى الباب. وكانت قد نزعنا عنهما اللبوس الأبيض الفضفاض ، وظهرتا في رداء مألوف يأخذ بصرك أولَ نظرة بمظهره الرخيص ، وتفاهته التي تبلغ أقصى حدٍّ ... حتى زلزل المرء ليلسح جوارب الفتاتين ، وقد توضحت فيها الفتوق والرتوق ...

ولمحتُ غير بعيد مركبةَ أجرة ، جلس فيها رجل لم يكد يرى الفتاتين حتى تقدم فأخذهما صاعداً بهما إلى المركبة ، وهو رجل أشيب وقور ، تدل ملامحه وسماته على أنه خادم من أولئك الذين تأنس بهم البيوت ، وتعدم الأسر من أفرادها المكرمين .

أما المستكاوى أفندى ، فلم يكد يطمئن إلى أنه رد الوديعة ، وأدى الأمانة ، حتى كثرَ راجعا إلى المقصف ، يعب من الشراب ...

وأحرق به جمع من الخلان ، يشيدون ببراعته ، ويهشونه بما أصاب من توفيق ...
ولما خفت حدة الأحاديث في حلقة المستكاوى أفندى ،

وأخذ الجميع يتفرق عنه ، دلفتُ إليه أقدم نفسي ، قهله وجهه ،
وأطبق على يدي يميني في ترفق ، ثم انطلق يبعث ذابره الذكريات
في تنادر ومزاح...

ولم تطبل وقفتي معه . إذ انقضت فترة الراحة ، وأوشكت
المنصة ان تستقبل المشهد الجديد...

وكان ابتهاجي بما أرى وما أسمع يخالطه شوبٌ من أسي
وضيق ، كلما طالعني صورة « المستكاوي أفندي » وهو في
المقصف بوجه المحتقن الذي لعبت به التجاعيد ، ويده الراحشة
التي لا تكاد تضبط الكأس بين الأنامل ، ولَبُوسه الملقق الصدي
الذي تفشت فيه الأوضار...

وملتُ عسلي بعض الرفاق أسألهم في شأن ذلك الصديق
القديم ، فأنبأوني أنه أعفى من الخدمة بلوغه السن ، وأنه
تحت ثقل أسرة موفورة المطالب ، فهو لذلك يعاني العُسرة ،
ويحاول أن يستدر الكسب باشتراكه في بعض المحافل والسوامر ،
ولكن إدمانه على الشراب وإفراطه فيه يتحيثفان كسبه ، فلا يزال
في معيشة خضنك .

ولست أدري ماذا أقول ؟ أنا الذي انقطعت عن حفلات النادي
فلم أشهدا ، أم النادي هو الذي ألغى تنظيم هذه الحفلات ؟

وأكبر ظني أن ثلاثة أعوام كاملة قد انقضت بعد ذلك ،
دون أن يتناهى إلى سمعى شيء من أنباء « المستكاوى أفندى »
ودون أن الملح له وجهاً في مكان ...

وجاء صيف ، فقررت إلى « الإسكندرية » ، أصطاف ،
وكانت المدينة تنصّر بالمساهر مختلفة الدرجات ، فقصدت
ليلة « مسهر المنارة » ، وهو من المساهر الشعبية التي تتباين فيها
المشاهد من تمثيل وغناء ...

وصادفتُ المسهر زاخر الجنبات ، فأقحمتُ نفسي بين
الجلاس في ذلك الجو الخائق العكر ، حيث تخيم على المكان سحاب
ثقال من دخان اللفائف ، وصراعد الأنفاس ، وبخار الخمر الغثة ...
وظفقت المشاهد تتعاقب ، ولم يكن كومة من برنامج
مكتوب ، وإنما كان يقوم مقامه رجل هريم من أنفايات المسارح
يرتدى لبسة البهاليل يزعم باسم المشهد الذي يجده على المنصة ، ويتخذ
في نصائح لهجة المتظرف المتفككة ، ولكنه لا يظفر بغير السخر
والاستهزاء ، فهو برنامج آدمي فاشل ، عز عليه التوفيق ...
انتابني الضجر ، فأزمنت انصرافاً ، ولكن البهلول استوقفني
بصيحته قائلاً :

« ثلاثي » عمر الخيام ، ...

وسرعان ما وثب في ذاكرتي ذلك المشهد الذي لا أنساه ...
 فجعلت أسألك نفسي :
 أحقاً ؟ ...

وفيا أنا يتنازعني العجب والحيرة : رُفعت الستارة عن منظر
 شرقي مبتذل ، تراءى في أفقه سماء تبص فيها نجوم شواحب ...
 ولحتُ رجلاً قد جلس على الحشايا يكسوه طيلسان ظاهر
 البلى ، وعلى رأسه عمامة ضخمة تكاد تبتلع وجهه ، وعن كشب
 منه عود ، وما لبث أن نهض يرصد الفلك بمنظار طويل ، ثم
 أوماً بعض إيماءات مسرحية كأنه يستدنى إليه شيئاً في السماء ،
 وما هي إلا أن هبّط المسرح فتانان كأنما توحيان ببريق ثوبيهما
 أنها نجهان ...

ومدّ الرجل يده إلى عوده ، وشرع يغنى ، فإذا أبا أسمع تلك
 الأغنية التي سمعتها في ردهة « النادي الأهل » ، منذ أعوام ...
 وأما الفتانان فكانتا على الرغم من ثوبيهما الرخيصين
 تتنصرون لطفاً وإيناساً . وتبدوان في زينة هادئة لا تصد النظر ،
 وكانتا في وقفتها على المسرح يمازج رقتما خضر وحياء : بسمات
 حيرى ، وإشارات لا تخلو من سذاجة ، وسمات صافية بعثت من
 مراقده ذاكرتي ملاح طيفين شهدتهما بالأمس الدابر على

منصة « النادي الأهلي » ...

وتبع المشهد الغنائى لحن صامت ، كانت فيه الفاتتان تحفقان
بأقدامهما على أنغامه فى حركات ساذجة أقرب إلى الرقص
الإيقاعى ...

وكانت الفاتتان خلال هذا المشهد البهيج تماثلان زهرتين
تدبّين تفتحت أكامهما ، فانبعث من حولهما أريج يسرى
فينعش الأنفاس ...

وما إن انفض المشهد حتى ضج المكان بالتصفيق والتهلل ،
فشاعت البسمات عذبة على وجبى الفاتين ، وهما تردان تحية
النظارة تم عن اغتباطهما بما أحرزتا من إعجاب ...
لم يكن فى المشهد كله مما يثير الحفاوة والإقبال إلا شئ واحد ،
ذلك هو وسامة الفاتين .

كانت فتنة جماها لُبّاب ما فى المشهد من فن يعتهوى

القلوب ! ...

وأئسى للقلوب ألا تستجيب لهذا الضرب من الفن الرفيع ؟ ...
إنه هبة الطبيعة ، تسخر بها على أناس ، كما تسخر بالعبقريات
المختلفة الضروب على الأفذاذ الخالدين ...
فتنة الجمال ! ...

أَنْعِمْ بِهَا مِنْ جَوْهَرِ غَالِ نَفِيسٍ ...
 حسبها أَنْ تَكُونَ ، فَإِذَا الْفَنُ فِي رِكَابِهَا طَبَّعَ ذَلُول ...
 وبعد انقضاء المشهد تركت مقعدي ، لا أحرص على استيفاء
 برَناجِ السهرة ، وحشت خطاى إلى ركن في الردهة ، عن كتب
 من الباب الذى يخرج منه الممثلون . وانزويت أترقب ...
 وبعد حين رأيت صديقى « المستكاوى أفندى » ، يتشد فى
 مشيته . متأبطاً فنانة ، وعلى بحياء مسحة زهو واعتزاز بما تملك
 يمناه ويسراه من ذخَرِ ثمين ...
 وكانت الفتاتان تسيران الرجل ، وهما تتغايدان فى مرح
 رفيق ، وقد اكتست كلتاهما ثوباً رشيقاً فى سذاجته ، يسبغ عليها
 الوداعة والالطف ...
 فأما « المستكاوى أفندى » فقد عُنِيَ أَبْلَغَ العناية بملبسه ،
 وتأنق فيه أينما تأنق ...
 ولا أنسى رباط الرقبة المفهاف ، يمس على صدره أحر
 قانيباً ...
 وأحدثت أعين النظارة بذلك الموكب الصغير ، وشاعت حوله
 هوامس التحية ، وتعالق هواتف الإعجاب ، ولم تملك بعض
 الأكف أن تسترسل فى تصفيق ...

وكنت ألمح بين أولئك النظارة عيوناً يتمثل فيها الشره ،
وتحتاج شهبوات الإقتراس ، وصاخنة أذن بين تلك الهوامس
والهواتف تناراً من ألفاظ نائية ليس فيها تحفظ ولا احتشام ،
تلبسها فتشكات خلاعة ومجون . فكان « المستكاوى أفندى »
يستقبل ذلك بوجه مرَبَّدٌ عبَّسوس ، ونظرات ينبعث منها
الاستنكار ...

فأما الفتاتان فكانتا تتلقيان تلك الحفاوة الخليعة بابتسامات
خجلة ، تمّ عن طرب واهتزاز ، حتى إنها لتسارقان رُواد
المسرح نظرات فيها تلطف وارتياح ...

وجد « المستكاوى أفندى » في مسيره إلى باب الخروج ، فإذا
مرَّ كبة أجرة يجلس فيها ذلك الأشيب الوقور الذي رأيته في
مثل هذا الموقف على باب « النادى الأهلى » قبل سنين ...

ولم يكده « المستكاوى أفندى » يسلم إلى الرجل وديعته
الغيبيتين ، حتى قفل إلى المقصف يتخطر في حُلته القشبية ،
ورباط رقبته المثلث يياربه في التخطر والازدهاء ، وما أسرع
أن أنحى على الشراب يعبه عبا ...

ووجدتنى أجلس غير قريب من مرَّمى عينيه ، ولا أدري
ماذا عدانى عن التقدم إليه أحياه . فاقدم ملكتنى خواطرى ،

وجعلت أتصفح في مخيلتي مر الفتاتين بين الجموع . يحاصرهما من
شَرِه الأحداق نطاق ، وتنساقط عليهما ألفاظ بذاءة وكَهْذَر ، فلا
تضيق الفتاتان بشيء من ذلك كله ، كأنما يقع من نفسيهما موقع
رضا واستحسان .

وأحاطت شِرْذمة من أخـ لاط النظارة بصديقي صريح
الشراب ، بهنثونه بتوفيقه ، ويساجلونه الحديث ، فإذا بالرجل
يشرئب ويتنفخ ، وتأخذ عزة الفن ، فينبري مفيضاً في شرح
دقائق المشهد الذي يضطاع ببطولته ، متمعناً في تفسير خوافيه
في التأليف والتلحين والآداء ، مُشِيداً بمجهوده في تنظيم تلك
الحركات الإيقاعية الراقصة ...

وكان يُتبعُ حديثه بإنشاد فقرات ومقاطع ، ثم
لا يلبث أن ينهض متراقصاً لتصوير حركة أو إيماء بما ابتدعه
في مشهده الفريد ، فيستجيب له الجمع منظارين بالإعجاب
والتصديق ...

واستقبلت الحلقة ثلة من الشبان المومنين الذين هم أحلاس
اللهو ، ممن تقوم عليهم صروح المساهر ، بما ينفقون فيها من أموال
سخية في بَذخ وتفاخر ... فأخذوا يشتركون في السماع ، ويغدقون
الإطراء .

— ١٧٣ —

ولبت الجمع كذلك وقتاً ، ثم انفرط عقدهم رُوَيْدَا ، حتى لم
يَبْقَ على ما نُدَّةُ الشراب إلا صديق الضابط القديم ...
وكان برنامج التمثيل قد انقضى ، وَوَلِيَهُ برنامج المجاهرة ، في
حلبة الرقص ...

وخلا المكان الذى يحجُب الرجل عنى ، فوقع بصره على ،
وبدا من نظراته أنه لم يُحَقِّقْ ، ثم تلاقت عينانا مرة ثانية . فألفيتنى
ناهضاً إليه ، حَيِّياً إياه ، مقدماً نفسه ، خيائى تحية مهذبة ، غير
متحمس فى الترحيب ... وكانت عينه توهج من أثر الشراب ،
وبفتة قال لى :

يَقِينِ أَنْكَ هُنَا مِنْذُ ابْتَدَأْتَ السَّهْرَةَ ...
— نعم ، وإني أكبر مجهودك العظيم فى مشهرك الرائع ...
فأخذ يُحَدِّثُ بصره فى وجهى ، كأنما يريد أن يستجلى سرى رقى
لِيَتَبَيَّنَ مَبَاغِ قَوْلِي مِنَ الْجَدِّ ...
ثم قال :

لَا بَدَّ أَنَّكَ فَطَنْتَ إِلَى ذَلِكَ الْمَدْخَلِ الَّذِى مَهْدَتْهُ لِلْقِطْعَةِ
الْغَنَائِيَّةِ ... أَقْصِدْ رَحْصَةَ الْآفْلَاكِ .
— حقاً كان مدخلا شائقاً ...

فلما وثق بى ، واطمأن إلى قولى ، انبرى يشرح لى تفاصيل

المشهد وأسراره ، معيداً ما ألقاه على شزيمة النظارة التي أحاطت به منذ قليل ...

ورأيت من الكياسة أن أؤيده في قوله ، وأن أستجيب له بما يزيد طمأنينته ، ولكنني كنت أحسّ - وأنا ألق حديثي - أن لكلماتي طعماً مرّاً على لساني ...

وقد طالما أشاد صديقي في محاضراته بما للتلحين وتنظيم الحركات الإيقاعية من أثر في تقويم المشهد وإمداده بالروعة . كأنما يحاول صديقي بهذه الإشادة والتأكيد لها أن يلقى في رُوعى أن ما حَظَى به المشهد من توفيق وإعجاب ، لا مرد له إلا براعته هو في التلحين والغناء !

وبينما كانت هذه الكلمات يَغصّ بها سمعى ، كنت ألمح طيف الفتاتين يتخايل تَجَاهَ عيني ، وهما تبعثان بابتسامة يختلط فيها التهمك بالإشفاق !

وأخيراً نهضتُ مودعاً صديقي ، فما إن غصَلْتُ عنه ، حتى أحسست كأننى انطلقت من أسر ، ودفمت خطى إلى الطريق أتتشق الهواء !

وتواصلت أيام وأيام ، وكلما لجّنت في الرغبة في ارتياد مسهر المنارة ، صدّدت النفس عن هواها ، ولكنني في النهاية لم

أطلق لرغبتى دفعا... فيممتُ المسهرَ أشهد « ثلاثى عمر الحيام » .
ظل المشهد فى بهيمه على حاله ، كما كان ، ولكن الجديد فى
الامر هو ما أحاط بالمشهد من مظاهر ...

فقد ازدادت الفاتتان أنقى وازدهاء ، وازداد الجمهور بهما
إعجابا وإغلاء ... فما تكاد إحدهما تبدى أقل حركة ، أو تنثنى
أهون انثناء ، أو تبسط ذراعها أيسر بسط ، حتى يتعالى هتاف
الإعجاب ، وتتوالى تحيات المعاشة ، فكانت الغادتان تستجيبان
لذلك استجابة مجترى مراح ، وتردان التحايا فى رضا
واغترباط ...

وفى مُنصرفهما — وهما تشقان الطريق بين النظارة ، يتوسطهما
صديق فى حلة الأنيقة ، ورباط رقبة الهفاهف — لاحظتُ ما
كانتا ترتديانه من ملابس متنقي يُفصح عن مفاتنهما البانعة .

وما أسرع أن رأيت زمرة الشبان الموسرين اللاهين تطبيق
على « ثلاثى عمر الحيام » فتحجبه عن الأنظار ...

وما كاد الموكب الصغير يتدانى من باب الخروج ، حتى صاح
قى من أولئك الزمرة قائلا للمستكاوى أفندى ، :

لقد وعدتنا أن تجيب أنت والآنستان دعوتنا إياكم إلى

العشاء ...

فبدا على وجه المستكاوى أفندى ، قلق وتردد ، ولكن
الزمرة ما عتمت أن زحمت الثلاثى المحبوب ، فدفعت به
صوب المطعم ، وكلتا الفتاتين تحاول أن تستر طريقها في منديلها
المعطر ...

وتبعت الركب إلى مطعم المسهر ، فاتخذت مجلسى على مائدة
أرقب من مكانها ما يقع ، دون أن تأخذنى العيون ...
وحمل الطعام إلى مائدة الحفل شهياً متعدد الألوان ، معزاً
بفاخر الشراب .

وشرع المستكاوى أفندى ، يتناول الكأس فى تمهل القانع ،
ثم إذا هو يسترسل ، فيعب من الشراب بلا حساب !
ونهض أحد أولئك الزمرة ، وكأسه فى يمينه قائلاً :
فلنشرب على نجاح ثلاثى عمر الخيام ... طرفة الفن ، وآية
الطرب !

وكان وهو يصبح بتلك الدعوة ، يحدد نظره إلى الغادتين ،
فأبسمتا له ، وضح المجلس بالتصايح والتصفيق ...
وضاق بالجمع صدرى ، فلم أطق بقاء حتى أشهد آخر فصول
هذه المهزلة الشنماء ...
وفيما أنا متأهب للخروج التقت عيناي بعينى صديق المتسكاوى

أفندى ، ، فأزاح بصره عني في استكاف ، وأيقنتُ أنه عرفني ،
فضيتُ مسرع الخطو ، وأقسمت وأنا أغادر عتبة الباب على أني
لا أعود إلى « مسهر المنارة » أبدا ...

وبعد أيام دعاني صديق كريم إلى عشاء ، وطال عنده سهري ،
حتى أذن الليل بانتصاف ، فلما تركت بيت الصديق آثرتُ أن أترجل
في طريقي استمتاعا بسكينة الجو وصفاء الهواء .

ولا أدري كيف ألفتني أمر « بمسهر المنارة » ؟ ... ؟

أقصداً كان ذلك مني ؟ أم هي خطأ تائهة ساقها القدر ؟ ... ؟

وتلاحق على سمعي هدير الضججة وأنغام « الجاز » المعربة
المنمرده : كأنما هي ريح عاصفة تلفني في تدويمها ... فإذا بي تشغل
خطاي ، ووجدتني أخلي سمعي لهذه الأصوات ؛ كأنني أتغلها
لألتس فيها صوتاً يعنيني ، وما لبثت أن سمعت صائحاً يقول في
اجتياح :

فلشرب على تنجاح « ثلاثي » عمر الخيام ، ا ... ا

وتقارعت الكئوس ، وتجاوبت الصيحات ، تتوضح بينها

ضحكات نسوية رقاق ا ... ا

وأمددتُ قَدَمي بعزم ينبجيني من تلك العاصفة النكراء .

وأخذتُ عيني مركبة الأجرة . مائلة بباب المسرح ، وعلى سلمها

ذلك الأشيب الهرم قد تجمع ، ورأسه يهوى ، وسماته تنطق
بالملاة والسأم .

وقطعت في السير شوطاً ، وبغته ثارت في الرغبة في العود ،
وما هي إلا أن كنتُ عن كُتب من باب « مسهر المنارة » ...
وظهرت ثلة الشبان يُحدقون « بالثلاثي » المحبوب ، في صُخب
وطرب ، وتقدم « المستكاوي أفندي » ، من مركبة الأجرة ، فأسلم
فتأنيه إلى الأشيب الهرم ، فانطلقت المركبة لغايتها ، وتقوض
الجمع ، وهم « المستكاوي أفندي » ، أن يابح الباب ، قاصداً إلى الحان ،
ولكنه في هذه اللحظة لحني ، فوقف يحدِجُني ببصره ، فأُنكرت
أن أراه ، وخطوت خطأ سِراعاً في الطريق ، ولكنه صاح بي
يناديني في صوت متحشج ، ولحق بي يحث قدميه ما وسعه
أن يحث فاضطررتُ أن أرجع إليه ، بحياء إياه فلم يرد تحيئي ،
بل وقف يبعث إلى نظرات صارمة ، ثم صرخ :

لماذا تتجسس علي ؟ ...

— أنا ؟ !

— نعم ، أنت ... لا تُنكر ... إنك تحاول أن تتعرف

دخائل شتوني ... ماذا تعيب من سلوكي ؟ ...

— لا أعيب منك شيئاً ... لا شيء ... !

— كذاب . كذاب وحق السماء ...!

وأخذ يبدى يهزنى جيّاش الأعصاب ، وهو يقول :

لك أن تتقول على ما شئت ... لا بعينى منك قليل ولا
كثير ... لك أن تشيع عني أنى مهرج سكير ... ولكن أنفق من
مال أحد ؟ ... إن المهرج الذى لا يروكك يكسب قوته بمرق
جبينه ، من أشرف طريق ...!

— مهلك يا سيدى مهلك ... إنك ترمينى بما أنا منه
سراه ... ماذا أستطيع أن أقول فيك ؟ وأى شيء أشعته عنك ؟
— إني على يئسنة بما يحول في خاطرك ... أظننى بليد الفهم ؟
إني أتصيد الأفسكار وهى طائفة ... الفن الرخيص الذى نزع من أنى
أعرضه هو فن رفيع . ليس في طوق أمثالك أن يحسن تذوقه ...
إني أضرب بما يقوله الناس عرض الحائط ... الفنان يعرف
قدر نفسه ، ولا يبيع سمعه لأحد ... لك أن ترى رأيك في كما
شئت ، ولكن إياك أن تتجاوز هذا الحد ... فخذار أن تستطيل
بك الجراة إلى المساس بكرامة ابنتى هاتين ... فأما إن حدثتك
نفسك بهذا الإثم ، فإني باطش بك ؛

ويضع يده يلوّح بقبضتها في الهواء ولكنه ما لبث أن
تأخّل توازنه ، وأوشك أن يتداعى ، فأسرعت إليه أقيه من

عثرته ، وهو ما برح يهدير محاولاً أن ينحسّر نفسه غنى ، كأنه
يأتى أن أكون له عوناً ...

وأقبل بعض عمال المسهر يأخذون به ، ولم يستطع أن يتمالك ،
فتعاوننا جميعاً على حمله إلى مركبة أجرة ، فما إن استقر فيها حتى
أشار إلى العمال أن يدعوه وشأنه ، لا يرافقه منهم أحد ...

وجرّجرت المركبة خطاها . ينازع صوت حركتها صياحُ
المستكأوى أفندى ، وهو يمجّد شرف ابتنيه ، ويلو بهما عن
أوضاع القليل والقال ...

وقصّدتُ بيتى تغتالى مَضَاضَة ، ولا تبحر رأسى أخيلة
ما وقع الليلة على باب «مسهر المنارة» ...

وكانت هذه الليلة آخرَ عهدي به ، فما طرقت به . لا دنوتُ
من مكانه ، ولكن أخبار « ثلاثى عمر الحيام » كانت تلاحقنى
كرهًا . فلم تكن تخلو صحيفة من إعلان عن ذلك المشهد ، أو حديث
فى شأنه ، أو إنشادة بتوفيقه ...

لقد انتقل « الثلاثى المحبوب » من «مسهر المنارة» المتواضع إلى
مساكن آخرَ أعزّ مقامًا ، حتى تسنّم مكانه مرموقة فى «مسهر النزهة»
أرقى ملاهى المصيف ...

وحاصرثنى صور الفتاتين فى الصحف ، مختلفات الأوضاع ،

يتضوع من مفاتهما أريج السحر ، وتتوقد في عيونهما نزع الفسّاية
والإغراء . وكلما لمحت هذه الصور طالعتني على الفور طيف وجين
على منصة النادي الأهل ، ينقلان نظراتهما البريئة على استحياء !
وتعاقبت الأيام أكثر من عام ..

وُدعيت إلى حفل في « فندق شبرد » تقيمه هيئة اجتماعية لها
خطر ... وضم الحفل صفوة الكبراء ، ونُخبة السراة ، ممن تلتهم
شخصياتهم في مختلف النواحي والبيئات .

وبعد أن أُلقيتُ خُطب تناسب المقام دُعينا إلى العشاء .
فأبصرنا الموائد حُلقة في بُهرتها معرض لمشاهد مسلية من
الرقص والغناء ، ووزع علينا البرنامج ، فقرأتُ في سطره الأخير:
« ثلاثي عمر الخيام ،

انظرتُ على أحر من الجمر أن أرى صديقي وفاتيه بعد غيبة
طال مداها ...

ولما حان ظهور « الثلاثي المحبوب » أظلم المكان ثم انصبت
الأضواء بغتة على بُهرّة الحلقة ، مختلفا ألوانها ... وبدأ « الثلاثي »
في المعرض يتخطر ، فانبعثت من الأكف عاصفة من التصفيق ...
ولأخني أن هذا المشهد قد بهر عيني حقاً بتلك الأزياء الفاخرة ،
والحلي الالاقّة ، وذلك الترف الواضح في كل ما تقع عليه العين ...

ولكن كل هذه المباهج كانت تتضاءل وتتصاغر إزاء تلك
البسات التي يفتّر عنها نغم الغادتين ، متوهجة بفتنة الأنوثة ،
تنسكب مهبأوها متقدة حرّى ، لو شرب قطرة منها «عمر الخيام»
في صوفيّته لأوحت إليه أن ينظم قلانداً يُزرى برباعياته . وتجبرّ
عليها ذيل الغناء ..!

وراعى أن المشهد قد خلص من عنصر الغناء ، وطغت
الموسيقى والرقص الإيقاعى على المشهد كله ، فلم تدع أسواهما
مقاماً فيه . . .

ولكن أى موسيقى وأى رقص إيقاعى أسمع وأرى ؟
حَسِبَ الغنائين أن تَنبِذَ عنهما انثناء عطف ، أو التواءة
خصر ، أو اهتزازة قدّ ، أو اختلاجة نهد ، أو انبساطة ساق ، فى ذلك
الموج من الأضواء الملونة ، حتى تسرى نفثات السحر فتملأ شعاب
القلب من نشوة وإمتاع . . .

وحدث ما شئت عما لقي المشهد من ترحاب وإعجاب ، وما
ودّع به من هُتاف وتصفيق . . .

وبعد حين رأيت صديق « المستكاوى أفندى » فى حلة السهرة
السوداء ، مثلاً يقصد منضدة تحفل بزمرّة من علية القوم ، ومالبثوا
أن تقارعت أيديهم بمتراعات الكنؤوس . . .

وأما الغادتان فقد ازدانت بهما منضدة الصدرة ، حيث
يجلس الداعى وكبراء المدعويين . . . وكانت الغادتان فى أتم زينة
وأبهى حُلل وحلى ، تتوالى عليهما ألوان الحفاوة من كل جانب .
وما أسرع أن تجمعت حول هذه المنضدة فرقة المصورين كسرب
من النحل يتفنن فى اقتطاف ما يطيب له من نَضرة هاتين
الزهرتين العطرتين . . . وانطلقت قذائف الأنوار من يد هؤلاء
المصورين لتصيد مختلف الأوضاع ، على حين تنبعث من جمع
الحاضرين اطائف النكات والضحكات !

وصدّرتُ عن الحفل أسير راجلا فى الطريق ... عارضا فى
مخيلتى تلك المشاهد التى مرّت فى الليلة .

وأطلقتُ العنان لفكرى يخلق فى هذا المجتمع الصاحب .
موازنا بين ما فيه من زيف وجوهر ، وباطل وحق ، متساؤلا :
أى العوامل هى التى تتيح النجاح وتؤثّق الفوز فى هذه
الحياة ؟

وعلى أى أساس يُصنّد المجتمع أحكامه على سلوك الناس
ومصايرهم وتقلّيبهم فى مراتب الأخلاق ؟

وزحنتى الأفكار . واختلقت فى السبل ، واختلطت على القِسم ،
فلم أعد أستطيع تمييزا ولا وزنا ولا تفرقة بين صلاح وفساد ،

— ١٨٤ —

أوزيخ وسداد !

وفيا أنا تستغرقى هذه الخيرة ، إذا بسيارة ضخمة رائعة
تنهذى جوارى ، فتطلعت إليها ، فرأيت فيها أغذاذاً من ذوى المقامات
الكرمية ، يتوسطهم فى عزة وخيلاء ، وفى ترف وازدهاء ، ذلك
الثلاثى العظيم ... "ثلاثى" عمر الحيام ، !

البَّنة إيزيس

دخل المثلّال رَذْهة منزله ، فى لمسة من رفاقه ، متجهاً بهم
إلى مكان تمثاله الجديد ، ابنة الرّبة إيزيس ، ذلك الذى أتم
نحته منذ قليل ...

وكان صديقه كبير الكهنة قد علم بهذا المثلّال الفاخر فأعد له
فى الهيكل الأعظم أكرم مقام .

أما هذا المثلّال فهو فى زهرة العمر ، وقد حلّى كبيراً من
الهياكل بالبارع من تماثيله ، وعلى الرغم مما ذاع من شهرته ، وما
بلغ من مكانته ، فإنه يلبح الذرّوة التى يتطلع إليها بين عباقرة
الفن بعيدة المنال ...

وإنه الآن إذ يزهر بتمثاله الجديد ، ليشعر بأن ذلك المثلّال
جدير أن يتسّم به تلك الذرّوة ، فتكون له الصدارة بين الخالدين
من بُناة النمايل .

والرجل يقضى حياته فى صحبة زوجة وفيّة أخلصت لبيتها
الإخلاص كله ، ووفرت لزوجها وسائل الطمأنينة والإسعاد .
وإن له منها طفلة توشك أن تستكمل عامها الخامس ، ولكن هذه

الزوجة على ما تبذل من جهد لا تسلم من لوم الرجل وتعنيفه ،
فهو دائم على الانتقاص من قدرها ، حريص على الزيادة بها ،
يأخذ عليها دائماً أنها في غفلة عما هو فيه من حياة فنية ،
ويرى أنها لا تتذوق من الفن ما يتذوق ، ولا تشاركه في تلك
السبجات الرفيعة في آفاق الروح ، فليس بينهما في هذا المجال من
تجاوب أو نجوى .

ولقد يذهب الرجل في تجنبه على الزوجة كل مذهب ، فيرميها
بأنها تعكر عليه صفو خلوته إلى عمله ، وأنها كثيراً ما تتخذش
السكينة التي يأنس إلى ظلها في ساعات الإلهام ، ولها من طمعتها
المدللة الشغوب عون أى عون على إثارة القلق والاضطراب ...
وطالما صاح الرجل بزوجه في نوبات غضبه : قائلاً :
ما دمت لي زوجاً ، فلا أمل لي في أكون فناناً عبثياً ، فإنك
لتفرضين طريقاً بأشأت العوائق والعقبات ...

إلا أن الرجل اعتقد منذ فرغ من نحت ذلك التمثال الجديد
« ابنة الرتبة إيزيس » ، أنه قد صنع معجزة الفن التي تيسر له منزلة
الخلود ... فلا غرو أن يزهو وأن يدغو رفاقه إلى المنزل
يشهدون فيه في أوججه الرفيع !
وأقبل الرجل في أصحابه على التمثال ، وكان في صدر البهو ،

مَسْبَلَةٌ عَلَيْهِ غَلَالَةٌ . وطفق المثل يتحدث في شأن تمثاله ، كما تما
يحيى أذهان الرفاق لاستقباله ، ويسر لهم تذوق ما فيه من روائع
الفن وبدائع الجمال . . .

وما إن اطمأن إلى أنه أوفى من ذلك على الغاية ، حتى أخذ
يميط الغلالة عن التمثال ، فانتظمت الجمع هزة إكبار وإعجاب ،
وجعلوا يهمهمون بالفاظ التدح والإطراء .. فاشتعل المثل
حمية ، وانتفضت منه المشاعر ، فتدفق في التحدث عن تمثاله ، مشيراً
إلى أوصاله وشيئاته ، مفيضاً في التعجب بما تتميز به من روعة
وافتنان . .

وفيما هو مستغرق في الحديث لا يحف له ريق . إذ تراءت طفلة
انفجرت عنها إحدى الستائر ، وقد تسلك في خطا حذرة ، وهي
تنقل النظر في البهو ومن فيه . . .

لقد تراءى إلى سمعها صوت أبيها يشقشق بالحديث عن التمثال ،
فقدت تستطلع الأمر . . . وقد وقع في وهما أن أباهما يقصر قصة
طريفة ، فأرادت أن تستمع إليها في غفلة من عين أمها . فلقد
حذرتها أمها أن تخرج إلى أبيها في تلك الساعة التي تشغله عن
كل شيء . . .

ورأت الفتاة حول أبيها ذلك الجمع المائل وقد أنصت له كل
الإنصات ، فأذكى ذلك من فضولها ، فواصلت سيرها وثيدة الخطأ ،
وعيناها السوداء وان النجلا وان تلتمعان يشرأ وار تياحاً ، ويداها
معقودتان خلف ظهرها دلالة واختيالاً ...

وكان أن انحرف بصر واحد من الرفاق ، فلمح الطفلة آتية ،
فاستغرب الأمر بادىء بدء ، وعجب لتلك الطفلة : كيف يؤذن
لها أن تقتحم ذلك المحراب الفنى الذى لا تعرف له كنها ؟
وخشى أن يكون من الطفلة ما يثير استياء أبيها فى تلك الساعة ،
وهو يعهد منه سرعة الغضب فى مثل هذا الموقف ، فسل نفسه من
بين الجمع ، وعجّل إلى الطفلة ، فإذا به أمام وجه أميل إلى السمرة ،
جذاب الملامح ، ذى عنين دجاوين ، وشعر فاحم مواج ...
فانحنى يمسك بيدها ، ويحاول أن ينحوبها نحو باب الخروح ، وهو
يسر إليها قوله :

يحسُن بك أن تعودى إلى أمك ... إنها تدعوك !
فلبثت تحديق فيه بهاتين العينين اللتين تأتلقان ذكاء وحيوية ،
وقالت فى الشُّغفة محبّبة ، وهى تتمهل فى الكلام ، كأنها ترن
ألفاظها وزناً :

أى ليست فى حاجة إلى ا

واهتز الرجل لتلك اللهجة المنزنة ، وذلك النغم الأغن .
فلم يملك أن ابتسم ، فاستجابت له الطفلة بابتسامة حلوة
كشفت عن أسنان لؤلؤية منضدة ، وأخذ الرجل يلاطف يدها
قائلاً :

إن أمك لا شك في حاجة إليك ، وهي الآن تبحث عنك
ولا تجدك ، فهلسى إليها ...

فقال له الطفلة وهي على حالها تحديق فيه :

أمى فى الماطهسى تُعدّ الطعام ا

والبنى الرجل نفسه رائياً إليها ، يتملى فتنة محبّتها ، ثم همهم

خافض الصوت :

ولكن يا صغيرتى عليك أن تعودى ...

وخطا آخذاً بيدها إلى الباب ، فازورت به عن الطريق ،

واستدارت تقول :

لماذا لا تريدنى أن أصغى إلى تلك القصة اللطيفة التى يحكيها أبى؟

فاستفاضت على وجه الرجل ابتسامة رقراقة ، وشاعت بين

جوانحه بهجة جياشية ، وقال وهو يعانى أن يخافست بصوته :

حقاً إنها قصة لطيفة ، ولكن ألا ترين هذا الجمع الزاحم ؟

إنه يعرفك أن تسمى شيئاً ا

فقتشبت يده، وقالت وهي تحاكيه في هميمته. والخافته بصوته:
إذن احكها لى أنت !

وإذا الرجل، يحد نفسه قد حمل الطفلة بين ذراعيه ، وهو
يتوسمها حيناً ، فتقبل هى على خده تلقى عليه قبلة من ذلك النوع
الغفيل ... قبلة كائنها الزهرة فى كنها لم تنضج بعد عطرها
الفواح ... ثم قالت فى إلخاف :
احكها لى ... احكها لى ...

فضى الرجل بالطفلة خفيف الخطو، وانتبذ بها ناحية ،
وجلس على متكأ ، وأراح الطفلة على ركبته ، وطفق يحكى لها
من صيّد خياله ، وهى شديدة الإصغاء ، يلوح على محياها كبير
اهتمام ...

وظلت تتاح حديث الرجل. معبرة بملاحظاتها وإشاراتها عما تسمع
من مشاهد الأقصوصة الساذجة ...

وطالما قطعت حديث الرجل تحاوره فى منطق هين لين ، ولا
تلبث أن تدعوه إلى استئناف الحديث ...
وكان الأب المثال ماضياً فى عجب وازدهاء يشرح لرفاقه روعة
الفن مصورة فى تمثاله الغد ...

وشاعت فى الردمة سارية من الجهامة والنزمت . حتى لتحبس

أن ثمة سحبا جعلت تتعقد في أفق الحجره ، فتلقى على المكان غشاوة من قتّام ...

وما كان ذلك الفنان في لهجته المتحفظة ، ومنطقه المعقّد ، المطوىّ على الأحاجي ، إلاّ كنل كاهن متخشع يثقله التزمت ، وقد استرسل في مواعظه الجافية المملولة .. والرفاق من حوله ، تبدو نلى وجوههم علائم المضض والكلال ، ملقّين أسماهم إليه على اضطرار ، وإن لم يفهموا الكثير مما يبلغ الأسماع ...

فأما التحفة الماثلة ، ابنة الرّبة إيزيس ، تلك القطعة الفنية التي تمثّل الطفولة الزكية ، فقد تراءت حيال الجمع كدّرَاء مغضّنة الوجه كابية ، وكأّما قد تكاثفت عليها أنفاس ذلك الفنان العبّوس ، فغاضت نضرتها الفنية ، وذهبت بشاشتها الصافية ، واستحالت عجوزاً أو قرّتها السنون ...

وبدت من أحد الرفاق افئة غير واعية ، كأنه استشعر الحاجة إلى أن يريج بصره بما يرى تجاهه ، فوقعت عينه على رفيقه قد خلا بتلك الصغيرة في ناحية من الردهة يتناجيان ... فرأى قدميه تخفان به إلى ذلك الركن القصي ، وما هي إلا أن اشترك مع الصغيرة في ملاطفة وحوار ... وما أسرع أن انتعشت رُوحه بسحر تلك الفتنة الوادعة ، فتنة الطفولة في أبهى حلالها وأروع خصائصها.

وما لبث هذا الثالث الصغير أن اجتذب إليه من الرفاق واحداً بعد واحد ، وكانت الطفلة واسطة العقد في هذا الجمع ، تُشع فيهِ الأُنس والبشر والمِراح ...

وما زال الرفاق حول الصغيرة يتنافسون في اجتلاب بسمانها وانتهاب قبلاها ، حتى احتوى هذا المجلس سائر الرفاق : فلم يبق هنالك حول التمثال إلا ذلك الفنان العبوس في غمرة من أحاديثه الغامضة ، وأحاجيّه الملتبسة ، يتناول بها أسرار الفن والجمال ، لم يشعر بانقراط الرفاق من حوله ، وانفضاضهم عنه : فقد كان ضباب العتمة والوحشة يغطي عينيه . ويُطبق عليه . على حين كان الركن القصي ، ركن الطفلة ومن اجتمع حولها من الرفاق ، قد أضاء بنور علوي وضّاح السنا ؛ وكان ، إيزيس ، نفسها هي التي أشعت ذلك النور على تلك الطفلة ، فأحس الرفاق كأنما هم أمام ابنة الرّبة الحقّة قد تجسدت في ذلك الكائن الإنسي اللطيف ، وكأنما هذه الطفلة قد خرجت بهم من عالم الوحشة والظلمة إلى عالم من الطلاقة والنضارة والإشراق

ها هم أولاء يحسون لها نشوة الحب الصادق ، بل ما هو فوق الحب ... إنهم يحسون لها روح التعبد في هيكل معتم موحش تتلاطم فيه أشباح البخور المفزعة ، وتنوح التراتيل المكروبة ...

إنه تعبدُ بروح الطبيعة الطروب ؛ فهم بين يدي ابنة إيزيس ،
الحقة تتوقد حيوية ، فتبعث في نفوسهم دفء الحياة ، وتهبهم
قبساً من شعلتها المقدسة ...

ليسوا هم الآن حيال تمثال قُدٍّ من زخرف ، مهما يتفنن صانعه في
نحته ، فإنه يحاول عبثاً أن يبعث فيه ومضة من نور ساطع ينبعث
من ذلك التمثال الحى ...

لاريبَ عندهم الآن أنهم يتعبدون على خير وجه ،
وأهدى طريق .. فهم يرون أنفسهم قد ظفروا بجوهر التعبد ،
ذلك التجاوب الروحى ، والتمازج الصميم ، بين العابد والمعبود ...
ذلك الحب الساذج يخفق به القلب مستشعراً متاع الحياة الصريح ،
غير مشوب بخشية أو ترهيب ... ذلك التطلع إلى وجه الإله ، دون
فروض أو قيود أو رسوم ... ذلك الارتواء من نبع علوى عذب
الفيض يسير المنال ...

كانت ابنة إيزيس ، الطروب المراح بين أيديهم يتوسمونها
ويطارحونها ألوان المطايات والآفاكيه ، فيرون فيها أروع مثال
للفن العبقري ، الفن الذى تحس الفطرة جماله ، وتندوق متعته ،
دون تعريف أو إيضاح ... الفن الذى لم ينحته إزميل ، ولم يعمل
في تسويته مِرْقَم ، ولم تتكلف التأنق فيه أنامل صانع من البشر ...

إنه نعمة الطبيعة الحسنى ومنحتها الطيبة ، سحت بها عفوَ الخاطر ،
لا تصنع ولا معاناة ...

وظل الأب الفنان بجانب تمثاله الصخرى وحده ، وهو
مسترسل في شغفسته ، فلما فطن إلى أنه خال بنفسه ؛ يتحدث إليها ،
تلفت حائراً يتفقد الرفاق ، فلمحهم في أقصى الردهة ملتفين حول
ابنته الصغيرة يتناوبون حملها بين أكفهم ويجاذبونها أطراف
الحديث ...

فبيت بين جوانحه عاصفة من الغضب ، وهم أن يخطو إلى
الجمع يعلن إليهم استنكاره ، ولكن عينه التقت بتمثاله ، ففطن أول
مرة إلى أن به شيئاً غير مألوف ، فأخذ يحد النظر فيه . ثم عدل
بصره إلى طمته فرأى عينيها الدجاوين تُفيضان السَّنا ، وابتسامتها
الرفافة تُشيع البهجة والإيناس ..

واستأنف النظر إلى تمثاله ...

أمة جهامة تغشى عيني التمثال ؟

أمة جفوة تتمثل في الشفتين ؟

وهل تكون « ابنة إيزيس ، جهمة جافية ؟

كيف سولت له نفسه أن ينحت التمثال عبوساً جاف

القسا ؟ ...

وجعل ينقل بصره بين الطفلة الجياشة الممرح وبين الطملة
الصلدة العبوس ، ولبت كذلك وقتاً ، حتى أحس الغضب يتلهب
بين جوانحه ، الغضب على نفسه وعلى تمثاله جميعاً ...
لقد جمادفه في هذا التمثال ، حتى أصبح في عينه تحفته الخالدة ،
وإنه الساعة ليتبين تفاهة هذا الأثر الذي بلغ به أوج الفن ...
فكيف إذن تكون نظرتَه إلى سائر تماثيله التي تفاوتَ تقديرُهُ
لها من قبل ؟

وأخذت الغشاوة تنقشع عن عينية ، وإذا هو قد انتفض
لانتفاضة ترايلت بها كبرياؤه واعتزازه ، وشعر بوطأة الخيبة
ووقل الهزيمة ، قهاوى على مقعد قريب منه ، وقد انتكس رأسه ،
وانطبق جفناه ، وتدلّت يداه ... وانساب به الفكر في
ظلمات يأس وقنوط ...

وأنهت أنامل رفاق تداعب كتفه ، فرفع رأسه ينظر ، فآلني
حظفنه بجانبه بتسم له على تخوف وحذر ... فهم أن ينحيا عنه ،
ولكنها عاجلته تتعلق برقبته ، وتقول له في رجاء ، وهي
تشير إلى التمثال :

أي... أي... قص على قصة هذه الدمية ... لها بهية الطلعة !

— ١٩٦ —

فألنى نفسه يقول لها من فوره :
أتروقيت ؟

— غاية في الجمال !

قهض الرجل بطفاته ، وأدناها من تمثال ، ابنة إيزيس ،
فلم تلبث أن أقبلت على التمثال تقبل عياه في بهجة وفرح ،
فأحس الأب طارئاً من النشوة يسرى في أوصاله ، وإذا هو
يضم طفله إلى صدره مهتاج النفس ، وإذا هو يطبع على جبينها
قبلة جياشة ... !

عِنْدَمَا تَبْصَحُ الْاِفْتِدَارُ

جلس إليه صديقه في مشرب من المشارب المعروفة ، يناقله
الحديث في شئون الزواج ، وقد رفرت حولها أنسام
الأصيل ...

وكان هو برّماً بجياته الزوجية ، يشرح لصديقه ما يعانيه من
متاعبها ، على الرغم من أنه حديث عهد بمُرس ...
فانطلق يقول :

لقد حسبتُ شهر العسل مديد الأمد ، فإذا هو متضائل
منكش قصير العمر ، وما أسرع أن بدأنا عهد مناوأة وعناد ...
إن الحياة يا صديقي لا قصرُ من أن تتسع لهذه المناكدات ، ولذلك
أجمعنا أمراً نضع به حداً لما نكابده ... ما أعجبها نهاية عاجلة لم تقع
لي في حسابان ...!

وأشمل الزوج المتذمر لفاقته ، وأشرع نظراته في الأفق ؛
كأنما يطلب إلى السماء تخفيف ما به ...
وانبعثت صدحات موسيقية رفيقة تتودد إلى الأسماك ،

— ١٩٨ —

وكان نعمها شجياً تستنيم له الأعصاب، وتستيقظ الألام .. فليث
الرفقان وقتاً يستعذبان تلك الأنغام الرقاق ...
وتنهذ الزوج من أعماق صدره . وهو يصل ما انقطع من
حديثه ، في صوت تشيع فيه الرخاوة ... قال :

أنعلم كيف عرقها ؟
إنها لمصادفة عابرة كان لها في حياتي أبغ الأثر ، ومن عجب أنه
كلما خطرت بيالي ذكرى هذه المصادفة أهدتني إلى جديد من
المتاع ...

كان ذلك على شاطئ « سيدى بشر » ...
وكنت في لمة من الصحاب نسبح ، ونستمرى مداعبة
الأمواج ...

وبغته دوت صرخة استغاثة ، فرأيت الشاطئ قد تراكت
عليه جموع الناس مهتاجين يحدقون في الماء ...
وسرعان ما ظهر قارب النجاة يسوسه ذلك البحار المعهود ، في
قيصه المخطط ، وسراويله القصيرة الدكناء ، تهدل على جوانبه
وجهه قبعتة البيضاء ...

وتلقت أنظار حيث ينظر الجمع ، فلبحت على البعد رأساً

لا يكاد يطفو حتى يطويه الموج ...
والفيتى أسبح من فوري ، قاصداً إليه ، دون أن يكون
ذلك وليد عزم أو تفكير ...

إنها خطفة من خطفات الشعور ، تريد المرء على الاضطلاع
بعمل جسيم ، دون حساب لعقبى ، أو تقدير لما يكون ...
كنت آتئذ كثة من الأعصاب ، أندفع فى تهور للحاق بذلك
الرأس الذى يصارع الموت ...

ووجدتني أسبق القارب ، وكبادنوت من مكان الرأس ،
ازددت من حمية وحماس ، فلقد كنت أحس أن أنظار الجموع على
الشاطى ترقب ما أنا مقدم عليه ...

واقتربت من المكان المقصود ، فإذا الرأس يغشاه الموج ،
وتنتشر على صفحة الماء خصلات من الشعر كأنما هى دماء قائمة
مسفوحة ...

وغاب عن عيني فى لحظة كل شيء ... وشعرت بأنى أتهاوى
بين طباق الماء ، أتلس ذلك الغريق الذى تعلق مصيره بمجهدى .
وما كنت أرى شيئاً ... فقد تخبطت فى بطن الموج ، أضرب
يمنى على غير هدى . ولجأة وجدتني أرتطم بجسد ، وأحسست
على الفور يدين تلشبثان بعنق فى قوة وعنف . ولا أدري أى جهد

واتانى حتى استطعت أن أجتاز غائلة المرح ، دون أن يجتذبنى
التيار بمن أحمل إلى القاع !

طفوتُ على سطح الماء ، وما زال الجسد متعلقاى ... وشاهدت
من خلال غشاوة الماء التى تغلف عيني شبح القارب يتوسطه ذلك
القميص المخطط والسر وايل الدكناء ، وهو يصيح بى أن أعجلَ إليه ،
فلم أعره جانب اهتمام ... وكيف لهذا البحار الفضولى أن ينازعنى
ماغنمته من فوز ، ويقاسمنى دون حق ما بذلت من مجهود ١٩ ...
ظلت فى طريقي أشق العباب ، وأنا أحمل ذلك الغريق ، وكنت
أحس رأسه يلمتى على صدرى ، وشعره الفاحم الغزير يتناوش
عنى ...

ولا أذكر أنى تبينت من قسماات الوجه شيئا . وقد صَارى ما
لاح لى منه أنه وجه عمتقع ، لا تنبعث منه أنفاس ...
وكانت صيحات البحار الفضولى تلاحقنى ، وضربات المجداف
تبعث خفقها إلى أذنى ، فألحبت ذلك من شعورى ، وأمدتني بقوة
أستعينها على الانطلاق ...
لن أفلت هذه الفتاة التى ألفت المقادير شبابها ونضارتها بين
يدى ...

لقد آمنت منذ اللحظة الأولى بأن مصيرها قد ارتبط بمصيرى ،

— ٢٠١ —

وأها قد أصبحت لي أنا وحدي ...

وبلغت الشاطئ ، فصعدتُ إلى اليابسة ، وأنا أحمل كنزى
الثمين أشق به الزحام ، ومن حوالى يتعالى الهتاف ١
وأشعل الزوج لفافة ثانية ، وزفر زفرة حترى ، ثم استأنف
يقول :

ما يسوغ لي أن أنكرَ ما أسدته إلى هذه الفتاة من جميل ...
تلك النشوة القربدة في حياتى ، بل في حياة الأقلين من البشر ...
ذلك الشعور النادر من الفوز والانتصار ...

ذلك الزهو الرفيع الذى يرتج أعطاف من أنقذ حياة إنسان ١
ولم تنقض أيام حتى كنتُ للفتاة خاطباً ، ثم أصبحت لها
زوجاً ... وشملتنا غفوة من غفوات الأحلام ، نعمنا فيها بأفانين
من مباهج الحب ومناعمه الحسان ١

ونفض الزوج لفاقته على طرف المنضدة ، وجعل يعبث بما
تنثر من الرماد ، وهو يردد نظرات أسف وتحسر ، ثم نفخ فيه
نفخة أسلمته للريح ... وهمهم :

لقد تطاير كل شيء كما تطاير الآن هذا الرماد ... لم يكن من
ذلك بدء ...

لست أدري كيف أفضى بنا المساق إلى هذه القطيعة ؟

— ٢٠٢ —

قصارى ما انكشف لى أتناكنا على غير تآلف ، أو على طرفى
نقيض ...

ما اتصل بيننا شيء إلا كان مثارَ تنازع واختلاف !
وأرسل الزوج المنكودُ ضحكة عصبية ، وواصل قوله :
بل إن أمراً واحداً لم يختلف عليه ... ذلك هو الفراق !
على هذا الفراق اتفقنا ، فى خلوة شملت السكينة والصرامة
والإخلاص ...

ولقد كان اتفاقاً كاملاً تفاهمنا فيه على « مستقبل الجنين » ...
فسأل الصديق ، وقد اتسعت حدقتاه .
أحامل هى ؟

— أحدثُ ما علمتُ أنها مُوشكة أن تضع ... إن هى
إلا أيام ...

— وهل تزاوران ؟

— لم أرها منذ أشهر ...

وأمسك الصديقان عن الكلام .

ثم بدأ الزوج يقول :

إنها تطلب الاحتفاظ بالطفل . فلتكن لها مشيتها ، وسأضطلع
بكل ما تتطلبه الحال من اتفاق ... فى سبيل الراحة تهون الصعاب ...

— ٢٠٣ —

لستُ بمضمر لها حقداً ولا ضغينة ، وما أضنّ عليها يئذل
ما يستوفى لها الطمأنينة ورفاهة البال ...

وأقبل في هذه اللحظة رسول إلى الزوج ، فتداني من
أذنه ، وهمس له بكلمات أثارت في وجهه علائم الاضطراب ،
ولكنه سرعان ما تمالك .. وهمهم : لا بأس ... ليس في الأمر
ما يهمّ !

وزايل شيخ الرسول ، وجعل الزوج ينقُر المنضدة بأصابعه
نقرات تفصح عما يحتاج في حنايا صدره من قلق .
ثم التفت إلى صديقه قائلاً في ضحكة عابثة :
هم يبلغونني أنها تضع ... أوَ حسبوني طيباً يدعى في هذه
المناسبة !

فواجهه الصديق قائلاً في لهجة رزينة :
إنك الزوج على أية حال !
فصاح في صوت متهدج يقول :
أتدعوني زوجاً بعد أن تقطعت بيني وبينها الأسباب ؟
فقال الصديق هادئ الصوت ، رقيق التبرات :
إن الزوجية بينكما في هدنة ... لستُ بفارض عليك شيئاً ..

لك أن تسلك الطريق الذى تهوى ... لو كنت مكانك ...
فقاطعه الزوج قائلاً :

لكنك الآن بجوار سريرها تحمل عنها بعض ما تعانيه ...
أليس كذلك ؟

— حقاً إنك لإنسان غريب الأطوار ...

— أى غرابة رأيتك منى ؟

فلاطف الصديق كتف الزوج قائلاً :

إن أوضاع المجتمع تدفع بنا إلى اتخاذ موقف فى الحياة ليس
لنا منه مَفْضٍ ...

ثم تمهل يقول ...

أضف إلى ذلك أن الموقف موقف إنسانى ، يجب أن نرفع
به فوق المشاحنات والاحقاد ...

— إذا شئت الحق ، فقل إن الموقف لا يعدو المجاملات

الرسمية والتظاهر بما هو فى الواقع رياء اجتماعى ...

ونفض الزوج على الفور ، فسأله الصديق :

إلى أين ؟

— ألم تُردنى على أن أذهب إلى المستشفى ؟

ووقف الصديق يبسم فى ملاطفة ، وأخذ بيد الزوج يضغطها

— ٢٠٥ —

كأنه يقول له :

نعم ما فعلت !

وما كاد الصديقان يبارحان المشرب ، حتى التفت الزوج إلى رفيقه ، وهو يتراءى بالمداعبة والمعاينة ... قائلاً :

وماذا تقترح أن أفعل أيضاً ؟

— مثلك في رقة حاشيته ودماثة طبعه لا ينسى ما هو اللائق

في هذه المناسبات !

— تعني أن أصطحب هدية ؟

— كدتُ أرغب إليك في ذلك !

— أليس من اصطحاب الهدية بدء ؟

— ذلك عمل يوحى به الذوق السليم !

— لن تكون الهدية أكثر من طاقة ورد ، كيفما اتفق ...

وانطلقا معاً إلى بائع الأزهار ، فاتخذ الزوج يسير في أرجاء الحانوت يتطلع إلى الرياحين المعروضة ... وما لبث أن أعرضَ عنها ، وأقبل على الزهور يسأله عن نوع خاص من الورد النادر ، فاستنظره البائع لحظات ليجلبه له من مكان قريب ، فرجع الزوج إلى صديقه ينتظر الورد المنشود فابتدره الصديق قائلاً :

فيم وقوفك ؟

— ٢٠٦ —

— فى انتظار الورد الذى طلبته ا
— هل طلبت ورداً معيناً ؟
— أجل ، طلبت نوعاً من الورد ، كنتُ أهديت إليها طاقة
منه فى يوم الخطبة ... المسألة مسألة ذوق ، لا أكثر !
فهز الصديق رأسه ، وقال :
هذا عهدى بذوقك دوماً ...

حمل الزوج طاقة الورد قاصداً فى صحبة صديقه إلى المستشفى ...
وانتهى بهما الدرجُ إلى الطبقة التى تقوم فيها حُجَرُ الوالدات ،
فاستقبلهما ممشى فسحَ تمتدّ تسطع أضواؤه فزيد جوانبه سطوعاً ...
المرضات والأطباء فى زهوب ومآب ، يحنون الخطأ فى همة
ومضأ . وهنا وهناك زوار تختلف سيماهم وتنبأين شاراتهم ، فهم بين
قلقٍ حائرٍ بدافع لحظات الترقب والاستطلاع ، ومبتهج استخفته
البُشرى ، فترنحت أعطافه من المراح ...
فأخذ الزوج يتلفت حوله . وقد عاجلتُ محبته مسحاً من
شحوب . وما كاد يجد نفسه عن كذب من إحدى المرضات حتى
أقبل عليها يواجهها فى اهتمام ، فيسألها :
أين تقوم حجرة زوجته ؟

ولم يكن في وقت الممرضة فسحة للوقوف وإجابة السائل ،
فاستمهلتته حتى ترجع إليه لتصاحبه إلى الحجرة التي تعنيه ...

فاتتحي هو وصديقه ناحية ينتظران ، ومرت دقائق ظل فيها
الزوج واقفاً فيما يبدو ، ولكنه في حقيقة أمره مُستَوْفِرُ
الأعصاب يتحرك في موقفه حركات لو كانت خطأ لانطوت بها
المسافات الطوال ...

ولمح غير بعيد تحفة يزجها بعض الممرضات ، وقد اضطجعت
فيها سيدة عليها أعراض المخاض ، فرنا إليها الزوج متفحصاً متحققاً ،
وهو يهيم :
ليست إياها ...

وما كادت تتوارى المحفة بمن تحمل ، حتى ندت صيحة
نِسْوية قرعت سمعه ، لا يدرى لها مآتي .
وأحس في هذه الصيحة رنين مكروب على شفا الملكة ،
ينشد الغوث ...

ورأى نفسه على الرغم منه ، يقبل على صديقه ضاغطاً يند ،
وهو يقول .

ما هذا الصوت ؟

— صوت حامل على وشك الوضع ...

— ٢٠٨ —

فازداد الزوج ضغطاً ليد صديقه ، وهمهم :
أَيكون صوتها ؟

فلاطف الصديق يده مبتسماً ، وقال :
أنتَ منى بصوتها أدرى !

فترك الزوج صديقه . وخطا إلى نافذة قريبة ، وأسلم نظراته
للأفق ، وطال به الوقوف على هذه الحال ، وقد حوتم به الفكر
في أودية شتى ، وعبرَ به الزمن إلى عهد تقضى :

شاطئ .. سيدى بشر ، يزخر بالرواد ، صفحة الماء تضطرب
بالأجساد وهي تغالب العُباب ... هو فى مصطخب الموج يهلو
منهرواً ويهبط ... حارس الشاطئ المعهود فى قيصره يتوسط قارب
النجاة .. ذلك الرأس يطفو ويرسب ، تنسكب خصلات شعره
الفاحم على صفحة الماء ...

وبغثة دوت فى أذن الزوج صرخة استغاثة علقت بقلبه ،
فغامت عينه ، وأحس فى غشيّة حله كأنما هو يصارع الموج مندفعاً
للحاق بالغريق ...

وفى لفظة عصبية غير مقصودة ، ألغى صديقه مقبلاً عليه ، فلم
يلبث أن اندفع إليه ، يقول له :

إنه صوتها حتماً .. إنها هى ... إنها تنشد معوتى بلا ريب !

— ٢٠٩ —

وجاءت الممرضة تدعوها أن يتبعها ، فقادتها إلى حجرة
الزوار ، وقالت للزوج في إشراق :
لتطمئن ... كل شيء على ما يرام ... سأدعوك إلى حجرة
الوالدة بعد قليل ...

وبارحت حجرة الزوار على عجل ، فقال الصديق للزوج :
ما بك ؟

فأجابه الزوج ، مُرَّعَشَ الصوت :
لا شيء ... لا شيء ... إنما هو تهافت أعصاب ، من وفرة
ما قُتُ به اليوم من أعمالٍ الخاصة . آن لي أن أخفف عن
نفسي متاعب العمل .

ولبنا في الحجرة فترة ، لا يتناقلان الكلام ، والزوج ساهم
بُرْهَفَ السمع ، ويتلقط ما يَنَام من الأصوات .
إن صَدَى الصرخة التي سمعها منذ لحظات ، ما فنى . يترجع
في سمعه ...

إنه صوتها بلا ريب ...
شد ما تتألم ، بل شد ما تألمت إِبَّانَ الحمل ...
إنها نحيفة لا قِبَلَ لها بمثل ذلك المجهود ...
لم يرها منذ أشهر خلت ...

أكانت في حاجة إليه ، فأخذتها العزّة ، وأبت عليها كبرياؤها
أن تطلبه ؟

ليس ينسى ما لها من ابتسامة وديعة تنم عن سريرتها النقيّة
التي تزل عنها الضغائن والأحقاد ...

صدى الصرخة يعاود أذنه في الحاجة والحاح ...
لن يصيبها مكروه ، ما دام قادراً على أن يذود عنها ذلك
المكروه ... !

ونهض مستوفزاً يقول لصديقه :

هيا بنا ننظر ماذا تم في الأمر ...

وفيا هما ماضيان إلى الباب ، قدمت عليهما الممرضة ، بين
يديها لفيفة بيضاء ، عملها في عناية وتحفظ . وقالت متبهلة الأسارير
وهي تقرب اللفيفة إلى الزوج ، وتميط عنها اللثام :

انظر ... ألا تراها قرأ يتواضع لها القمر ؟ !

فحدق الزوج فيها . وقد عاجلته البهتة ، وسأل :

من تكون ؟

فتضاحكت الممرضة ، ومالت بوجهها إلى صديق الزوج ،
تقوله : انظر كيف يتجاهل ؟ ...

وتطلع الصديق إلى محبّا الوليدة بين ألفافها ، وصاح بصديقه

الزوج قائلاً :

نسخة منك وفق الأصل !

غرنا الزوج إلى الوليد ، يتوسسها في صمت واجف .

حقاً إن فيها الكثير من مشابيه وملاحه ...

ولكن ذلك الغم المتميز : لمن يكون ؟

وتلك الشفة العليا ذات التواء : أية شفة تشبهه ؟

وطارت به الذكريات إلى يوم اجتلى فيه شبيه تلك

الشفة ... يوم أنقذ فتاته من الغرق ...

يوم انتشلها من بين أطباق الماء ، وحملها إلى ظلها على

الشاطئ ، يسعفها بالعلاج ...

لقد كان أول ما أسترعى نظره منها يومئذ تلك الشفة ذات التواء ...

اشد ما كان وجهها ساعتئذ شاحباً بالغ الشحوب ...

كانت مشرقة على الهلاك !

ورفع بصره من فوره إلى الممرضة ، يقول : كيف حالها ؟

إنها بخير ... وإن كانت قد عانت عسيراً من المجهود ...

— ألم يحسن الوقت لزيارتها ؟

— كما تشاء ... إنها في الحجرة التالية ...

وهم الزوج بالخروج ، فاستوقفه الصديق قائلاً :

— ٢١٢ —

لا تنسَ طاقة الورد !

فجعل الزوج يتلفت باحثاً عنها ، ولكنه لم يمسثر عليها ،
وجعد في البحث ، فذهب بحته سُدى ...
فوقف لحظة حيران قافلاً ، ثم وقعت عينه على الوليدة ، فأشرق
وجهه بخته . ودنا من الممرضة يجتذب اللقيفة من يديها ، وانطلق
إلى حجرة الزوجة في خطاٍ سرّاع ...

وما إن دخل الحجرة حتى احتبست خطاه ...
لقد طالعت زوجته ... ممدودة على سريرها ، بادياً شحوبها
فجعل يرقبها مهتز الأوصال ...
وتلاقت عيناها .
كانت نظرتها إليه كليله وانية ...
والتي خطاه تنهادى به إلى السرير ، على استحياء ...
وإذا بوجه الزوجة تكسوه سحابة من الشجو ، وتنخيل عليه
اختلاجة إجهاش ...
فأهى إلا أن وجد الزوج نفسه يُهرّع إليها ، ويضع اللقيفة
مترققاً في حضنها ...
وانحنى على يدها يبشها قبلة عميقة زاخرة !

مَوعِد

كان اليوم يوم الجمعة ، والوقت منتصف الحادية عشرة صباحاً حين جلس « توفيق بك » سعودى ، يدخن ويرتشف القهوة على مهل . وهو فى الفترة بعد الفترة ينقل نظره فى جريدة مبسوطة بين يديه ، إذ يستمتع بالراحة بعد أسبوع شاق قضاه يعمل فى وزارة المالية ، وعن كَتَب منه جلست زوجته « بهيجة هانم » مكتبة على آلة الحياكة تتخيط ثوباً لها .

ورفعت الزوجة بصرها تقول لزوجها : نسيتُ أن أخبرك بأن « سامى » قدم بعد خروجك أمس ، فدخل حجرة ملاسك وانتقى من بين أربطة الرقبة رباطاً راقه .
فقبَّله ، توفيق بك ، وهو يقول :

لعل ما أعجبه هو الرباط الأزرق ذو النقط الأحمر ..

— هو بعينه ...

— كنت أقدر ذلك ؛ فقد اشتريته منذ أيام قليلة ، ولم أستعمله بعد .

ووضع « توفيق بك » رجلاً على رجل وأتم قوله : ثم ماذا ؟

٤
- ٢١ -

- لقد عرفتَ أمر الخُفّ ...

- رأيته في قدمه ..

وجعل « توفيق بك » يهزّ ساقه عابثاً ، ثم قال :

من يأخذ إذا لم يأخذ مني ؟ ...

فتسّلق وجه الزوجة بابتسامة خيرة ، وعادت إلى ثوبها تصميكة .

وأقبل « توفيق بك » على الجريدة يقرأ ، ولكنه ما عثم أن

ألقاها جانباً وهو يغتمخ :

لا شيء إلا أنباء الحرب والغارات ... كما تخلت الدنيا بما

يستحقّ أن يُروى ... وولاية الأمور لا يُعنونَ بغير ذلك

من الشئون ، أما حالة الموظفين : والنظر في إنصافهم ومنحهم من

الدرجات ما يستحقون ، فذلك ما لا يتطلب منهم أقل العناية

والاهتمام !

فأجابته زوجته وهي تدير آلة الحياكة وتتبع بنظرها :

حركة الإبرة :

ومذكرك التي تطلب بها الترقية ... ماذا تم فيها ؟ ...

- لقد أعددتها ، ولكن يجب أولاً أن ...

وسمّع « التليفون » ، يدق ، فقال « توفيق بك » ، على الأثر :

أكبر ظني أنه « محفوظ بك » ، لقد وعدني أن يكلمني اليوم

— ٢١٥ —

في شأن هذه المذكرة .

— أسرع إذن ... !

وكان « التليفون » في ركن بعيد من الردهة ، فنهض إليه
« توفيق بك » وظلت زوجته على حالها منصرفة إلى ثوبها
تختيطه .

وجذب « توفيق بك » السبابة وهو يقول : « ألو ! »

فإذا بصوت حلو النغمة ابن النبرة يجيب :

« ألو ... من المتكلم ؟ ... »

فأجاب في تحفظ : هنا منزل « توفيق بك سعودي » .

فقال الصوت الناعم : أموجود « سامي بك سعودي » ؟

فأجاب « توفيق بك » في لهجة حازمة :

وماذا تريد من « سامي بك سعودي » ؟ ..

— أريد أن أعلم أولا أموجود هو أم غير موجود ؟

فقال « سعودي بك » في عنف : غير موجود !

فتلطف الصوت الناعم وقال :

لا بد أنك « عيسى الفراش » ، لا تحتد يا « عيسى » ،

أرجو منك أن تخبر سيدك « سامي بك » أن موعدنا اليوم

سيكون تجاه دار البريد في السادسة مساء . لا تنسَ ... سعيدة

يا « عيسى » ...

وهم « توفيق بك » ، أن يقاطع المتكلمة ، نخافه صوته ، فرمى
الساعة مكانها وهو يهدر : وقاحة ... قلة أدب ...

ثم عقد يديه خلف ظهره ، وانطلق يصيح :
يا « عيسى » ... يا ولد يا « عيسى » ... أين أنت يا كلب ... ؟
فسمع زوجه تقول :

« عيسى » اليوم مريض ... وهو في بيته معتكف ...
فقدمم « توفيق بك » قائلاً : فليذهب في داهية .
وانبعث يصيح ثانياً : يا « سامى » ... يا ولد يا « سامى » ...
فقال زوجه وعيناها موصولتان بإبرة الحياة :
إن « سامى » ، مع أستاذ الرياضة في حجرة الدرس ...
— مع أستاذ الرياضة ١٩

واستأنف صياحه ينادى : يا « سامى » ... يا ولد يا « سامى » ...
فرفعت « بهيجة هانم » رأسها عن آلة الحياة وقالت :
اتركه بربك يتم درسه في هدوء . إن الامتحان قريب ...
— امتحان ... هه . ١٠

وطفق يذرّع الردهة ويداه معقودتان خلف ظهره وهو
يغمغم بالألفاظ يمضغها مضغاً ، فسأله زوجه :

ما بك ؟ ... أحَدُكَ ، محفوظ بك ، بشيء جديد في
شأن المذكرة ؟ ..

— المذكرة ... المذكرة .. نعم .. نعم .
وما فئ يذرع الرذعة بالخطا القلقة ، ومضت ، بهيعة
هانم ، تستكمل عملها في حياكة الثوب ، وقد فطنت إلى أن أمراً
جداً في شأن المذكرة عكر على زوجها صفوه ، فحرصت على تجنب
الحديث فترة حتى تسكن الثائرة .

ولبت ، توفيق بك ، يتابع سيره ذهاباً وجيئة ، وسمعت
زوجه يمجج : أطفال لم يخرجوا بعد من البيضة تصدر منهم
هذه الأعمال . . .

— من تسنى ؟

— ابنك ، سامى ، ... هل أعنى غيره ؟ ... ابنك الذى
حذرتك مراراً وتكراراً من تدليه فلم تصغى إلى قولى .

— ماذا جرى ؟

— لا شيء ... لا شيء ... ، سامى ، آية في الأدب
والسكال ...

وما زال يسير وقد وضع يديه في جيب معطفه المنزلى . وما
هى إلا أن رجع إليها ووقف أمامها يقول : أنت التى أفسدتى .

— ٢١٨ —

ما زلت تغمرينه بآيات المدح والإعجاب ، ولا تنفكين ترددين على
أذنيه أنه جميل ، خفيف الروح ، غاية في الجاذبية ، حتى حسب
نفسه « دون جوان » ، أسر القلوب !

— ما هذا يا « توفيق » ؟

— ألم تلاحظي عليّ أنه أصبح الآن يُعنى بزينته أكثر
من عنايته بدرسه ؟ لقد صار مكتبته أشبه شيء بمعرض شائق
للعطور والأدهان ... !

— إنه شابٌ ، وسنه تتطلب ذلك !

— سنه تتطلب ذلك ؟ لعالم ترعمين أيضاً أن سنه تلزمنا
بأن نبحث له عن ... عن خليلات ...
— أنت بلا ريب تهذى ... !

فتحول عنها ، وخطأ قليلا ، ثم قفل إليها يقول :

قلت لك لقد سممت عقله بهذا المديح ...

فابتسمت الزوج وقالت : ألا تعترى الأم بجمال ابنها ؟ ... أليس
« سامي » ، جميلا يا « توفيق » ، ... ولكنني أعترف لك أنه لم يبلغ
مبلغ أبيه في الوسامة مع أن قوامكما واحد . وعبونكما متماثلة ...
وهذا الحاجب والأنف والفم نسخة أصيلة منك يا « توفيق » .
تكادان تكونان توأمين ! ...

واتنى عنها «توفيق بك» ، وترفق في سيره ، يد أنه لم يعقد
يديه في هذه المرة خلف ظهره ، ولم يضعهما في جيب معطفه ،
بل رفسهما في سكتينة وتؤدة إلى شاربته وأخذ يفتله في عناية ...
وعرج على مرآة قائمة في الحائط ، وراح يترامى فيها ، ثم انعطف
يمشى في الردهة لا ينبس . وعن له أن يقصد حجرة «سامى»
تقف إليها . وامتدت يدها تمسح بأوراقه وأشياؤه . وعثر فيها عثر
على بضعة أعداد من مجلات أسبوعية . فاعتدل ينصفها على
عجل ، فاسترعت بصره صور لبعض غانيات يعملن في المسارح
والمراقص وقد جلطن العور في أوضاع خلافة ، فانهك يتفرج ،
ورأى في عقب إحدى الصور علامة مرقومة بالقلم الأحمر ،
فألحظ نظراته إليها ، وأسرع إلى ذهنه حديث «التليفون»
وذلك الصوت الناعم الرقيق . فلمعت عيناه ، واندفع ينقر حافة
البافذة ، ثم غنم قائلاً : «أفاجته بصورتها ، وسيفضح أمره ...
واقطع الورقة من المجلة ودسها في جيبه ، ثم غادر مكانه وتوجه
نحو الباب .. فملق بصره بصورة ابنة على خوان الزينة محوطة
بقوارير العطر والأدهان . فثقل قبالتها وقتاً وجعل يتفحصها ثم رفع
حاجبه الأيمن ومط شفته السفلى في استهزاء ، وترك الحجرة وهو
يتضحك .

— ٢٢٠ —

وما إن بصرت عينا زوجه به حتى بادرت به قائلة : ومذكرتك ماذا قال في شأنها ، محفوظ بك ، ؟ ...

— مذكرتي ... قال لي إنه عرض الأمر على الوزير ، ولكنني لم أعلم على وجه التحقيق ماذا تم حتى الآن ؟

واتجه إلى الشرفة وأسند يديه إلى حائطها وسرّح بصره في أجواز الفضاء . ثم أخرج من جيبه ورقة المجلة ، وجعل يتأمل فيها . وأسرع بطويها ، ثم أشعل لفافة من التبغ ولبث يتفرس في دخانها ، ورجع إلى الردهة بخطا بطيئة ، وجلس على المتكأ وقد بسط الجريدة أمامه وظل وقتاً ينقل نظره فيها ، دون أن يقرأ حرفاً ... وسرعان ما صاح دفعة واحدة : أف لصوت هذه الحائكة ... ما أنكره ! ...

فرفعت « بهيجة هاتم » بصرها إليه تتعجب ، بيد أنها لم تنبس ... كان هذا أول اعتراض سمعته منه في شأن هذه الحائكة ... وما هي إلا أن استأنفت حياكتها ، فغمغم « توفيق » في حدة : إن الراحة مفقودة في هذا المنزل . وألقى الجريدة من يده ، ونهض إلى حجرته .

طرح « توفيق بك » جسمه على مقعد فسيح وأخذ يزفر ، ثم واثاه الهدوء رويداً ، فانطلق يفكر فإذا به يعرض مشاهد من

— ٢٢١ —

حياته ، وأحس في هذه اللحظة وحدها ما ساد حياته الراتبة من
خمول يستوجب الملل : المنزل والديوان والقهوة . وجسوة
لا تتغير ، ونظام لا يتبدل ، وطابع من الحياة أشبه بطابع التلاميذ
في المدارس أو الجند في الشبكات .. كان صوت الحائكة يهدير
في الردهة ، فسادح وهو في مكانه لم يفارق مقعده :
أكاد أجن من هذه الحائكة ...

وحينئذ قدم « سامي » ، على أيه فقال له : هل طلبتني يا أبي ؟
— نعم . طلبتك ... أهلا وسهلا !

وزايل « توفيق بك » ، مقعده . واشتبكت يده خلف ظهره ،
وعاد سائراً في الحجرة يندو ويروح ، ثم مثل أمام ابنه ، وقال
له وقد زوى ما بين عينيه : إلى متى استهانتك بحق أهلك ؟
فدهش الفتى وتساءل : أى استهانة يا أبي ؟

— خفي من قبل ، ورباط رقبتي أمس ... إنك لتبيح لنفسك
ما أعدّه افتتاناً على ما يجب لي من احترام .

— الحق يا والدي أنه لم يكن لدى رباط على لون كسوتي
الجديدة ، وقد استأذنت والدتي في استعارة هذا الرباط الملائم ،
فأذنت لي .

... أذنت لك .. تعني أن لو الدتك حق التصرف في ملابسي

— ٢٢٢ —

كما تشاء... ١٩...

- لم أقل ذلك... ولكنني أقصد...
- آه... لا. لا... لقد بلغ الأمر حداً لا يطاق...
- سأعيد إليك الرباط من فوري...
- بعد أن استعملته... شكراً... وما شأن هذه الكسوة الجديدة؟... لم أعلم بها من قبل.
- لقد نقلتُ إليك نبأها.
- لعلها الكسوة الخامسة أو السادسة التي تستحدثها هذا العام، على حين أقصر أنا على واحدة أو اثنتين...
- إنني لا أستحدث كسوة إلا بأمرك...
- بأمرى أو بغير أمرى... لقد أصبحت الآن لا تُعنى إلا بملبسك وزينتك... تحسبُ نفسك أبهى الشبان رواءً وأرشقهم قواماً وأجملهم شكلاً.. يجب أن تخلّي رأسك من هذه الأفكار
- ما هذا يا والدى؟ إنني...
- يجب أن تهتمّ بدروسك. بدروسك وحدها، وأن تعدل من سيرك، وتقوّم من سلوكك... أفاتك أن الامتحان قريب؟

— ٢٢٣ —

— اننى لا أغفلُ عن الدروس يا أبى ...

— هذه نصيحتى إليك ... وما أبغى إلا تفعلك ...

وضرب يده فى جيب معطفه المنزلى غير طامد، فليست
أنا له ورقة المجلة فأمسك بها وأبقاها مكانها ، ومشى يذرع
الحجرة بخطوات قلقة وقال : إن والدتك قد أفعمت رأسك بألوان
زاهية من المديح والإطراء ، فركبك الغرور وخيلت لك نفسك
أنك « دون جوان العصر » .

وتضاحك وهو يردد :

ولكن أى « دون جوان » هذا ؟ ... « دون جوان »

لا يساوى بصله ... !

وربت كتف ابنه فى مداعبة ساخرة وقال له : لا يفضبنك
كلامى ! اننى لا أعنيك وحدك ، بل أعنى هذه الطائفة المتطرقة من
شبان اليوم . هذه الطائفة التى إن وازنت بينها وبين طائفتنا حين
كنا فى مثل أعماركم ، ظهر لك البون شاسعاً ... ومع ذلك فليسم
نذهب بعيداً ؟ ... تأمل قامتك المقوسة ووجهك المعروق ثم
ارجع بصرك إلى قامتى المنتصبة ووجهى الرّيان لقد أفسدكم التخنث ،
على حين دفعنا الرجولة الحق إلى المكانة التى نستحقها ...
ذاكر دروسك ... إن الامتحان قريب ...

وضمت مائدة الغداء الأب والزوج والولد، وكان «توفيق بك» صموتا موزع الفكر، وحضر الطعام، فأكل الثلاثة في جو يسوده السكوت المطوي على قلق وحيرة.

وزفر «توفيق بك» مدممًا:

كل يوم «قورمة»... أليس في الدنيا غير «القورمة»؟...
فقلت زوجه وهي تنظر إليه متعجبة:

إنه اللون الذي تستطيه وتفضله على غيره من الألوان...
— ولهذا السبب تقدمينه إلى كل يوم... إن أشهى الألوان
والألذها إذا قدم كل يوم كان جديرًا أن يُعافَ وبكره...
— ولكنتا لم نطبخ «القورمة» منذ عشرة أيام...
— تعنين أنى كاذب في دعواي... ألا يحق لي أن أتقصد
الطعام الذي آكله؟.. أتريد أن ترغميني على أكل مالا
أشتهي؟...

— إنك تآثر الأعصاب اليوم يا «توفيق» ولا يمكنني أن
أبادلك الحديث.

فصاح على الأثر: إن كلامك هذا هو الذي يثير الأعصاب.
— إذن سألزم الصمت إن كان هذا يروقك.
— لن تسمعني ألفظ كلمة واحدة. استريحى!

— ٢٢٥ —

وفي الساعة الخامسة جعل « توفيق بك » يرتدى ملابسه ،
فإذا به ينتقى أبهى ما عنده ، وكان يختلس النظر إلى ساعة يده في
الفينة بعد الفينة ، وأحكم قتلَ شاربه وتضميخ شعره بالعطور
والأدهان .

ودخلت عليه زوجته تقول : إنك بلا ريب تعدّ نفسك
« للسينما » . سنذهب ، معاً على حسب الاتفاق ...
فقال لها وهو مهمّ بمقدرباط الرقبة :
ولكن يا « بهيجة هانم » ، لدى موعد مع « محفوظ بك » ، في
شأن المذكرة .

— المذكرة ... ما هذا القول ؟

فربت خدها مداعباً ، وقال : لا تستأني يا عزيزتي ...
إنه موعد مهم جداً ... أما « السينما » ، فيمكن أن يصحبك فيها
« سامي » .

فغمغمت : « بهيجة هانم » : « سامي » .. لقد أخبرني بأنه
سيذاكر دروسه مع صديقه « فتحي » ...

فوقف « توفيق بك » وقفة اعتراض ، وقال : درس في
الصباح ... ودرس في المساء ... أنسيت أن اليوم يوم
الجمعة ؟ ... يوم الراحة والاستجمام ... إن الولد يقتل نفسه

— ٢٢٦ —

بهذا العمل المضى ١...

وأصدر « توفيق بك » أمره إلى ابنه بأن يلغى مذاكرته مع
صديقه « فتحي » ، ويصحب أمه إلى « السينا » لأنه شديد الحاجة
إلى رياضة ذهنية تريحه من كد المذاكرة ...

وغادر « توفيق بك » المنزل بعد أن رشقَ وردة حمراء في
عروة ستريته ، وسار في خطا المتظرف الرشيق ، ووجهته ...
دار البريد !

سِيرُ الْأَمِيرِ الْهِنْدِيِّ

نحية لذكرى المرحوم د علي طبنجات،

سمعتُ بالشخصية المسرحية التي سَرَتْ بِحديثها الصحف ،
”مُغْدَقَةٌ“ عليها القِصاب الإشادة والإعجاب ، وهي شخصية الأمير
الهندي. د أوتا كاما ، الذي يعرض دَوْره الهزليّ البارِع في
” سينما الكواكب “ ، ..

فهنا في الشوق إلى أن أفصد دار ”السيناء“ في إحدى الأماسي ،
لأنعمَ بشهود ذلك الفصل .

وما إن بدا الأمير يتواثب في خفة على المنصة ، حتى ثارت
عاصفة من التصفيق والخفاوة ...

وما كاد بصرى يأخذه ، حتى عَرَتْنِي هزة

هذه الملاحم والسبات معروقة لي بلاريب ...

هذا الوجه الأعجف المسنون ...

وذلك الأنف المدلّي ...

وتلك القائمة القصيرة المُرّة ..

ليس شيء من ذلك بالجديد في عينيّ ..

ولكن ما خَطَبُ هذه اللحية المشدبة الخفيفة المعصفرة ١٩...
وجوّم بنى الفكر غير قليل ، تختلط على الأشباه ، وأنا من
أمر هذا الأميز في حيرة وعجب : ...
ليس هذا الرجل غريباً عني ...
أمكن أن يكون من أعني ؟ ..
أمر حقاً ؟ ...

إن من يتجه إليه بالى قد طواه الردى منذ أعوام ، وأصبح في
ذمة النسيان ..

انطاق الأمير الهندى يمارس ألاعبيه ، فاستهوانى بلطائفه
وأفانينه : وما يشيعه من جوّ مَرَح ينتزع الضحك من أعماق
القلوب ..

فأنساني ذلك ما كنت أفكر فيه من اشتباه شخصيته على ...
واندججت مع النظارة فيما ينعمون به من أنس صخب .
لقد كان صديقنا «أوتاكاما» يتألق في لبوسه الحريري ،
تعكس عليه ألوان الأضواء . وعلى رأسه عمامته الهدية المتطاولة
الموشاة ، آمنة أن تسقط ، وإن علا بها وهبط ، وإن دار بها في
الهواء دَوْرانته ، البهلوانية ، الخواطف ...
وفي الفينة بعد الفينة تبعث من حلقه أصوات متباينة ، يحاكي

سها هديل الحمام حيناً ، ونُعاب اليوم طوراً ، وصراخ القروود تارة ،
ومُواء القطط تارة أخرى ...

وَقَدْ يَدْعُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، قِطْرَهُ دَفْءَةً وَاحِدَةً قَدْ خِيَلُ إِلَيْكَ بِمَا
يَصْطَنَعُ مِنْ نَبْرَاتٍ مُتَخَالِفَةٍ ، وَلَهْجَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ - أَنْتَ تَسْمَعُ
إِلَى مَجْلِسٍ صَاحِبٍ لِأَنَاسٍ اشْتَدَّ بَيْنَهُمُ النِّقَاشُ بِمُخْتَلَفِ اللُّغَاتِ ...
وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَفْجَأَكَ بِدَوْرَاتٍ مُتَلَاحِقَةٍ يُمَثِّلُ لَكَ فِيهَا أَشْهُرَ
رَقَصَاتِ الْأُمَمِ ، غَيْرَ غَافِلٍ عَنْ إظهارِ حِدْثِهِ وَبِرَاعَتِهِ فِي
رَقْصَةِ الْبَطُونِ ...

وإنه ليلبغُ الذروة في ختام دوره ، إذ تنشقُّ الأرض عن
الشيطان في صورة مارد سمهريّ القامة ، بائن الطول ، كأنه في ثوبه
الاحمر القاني لسان من نار ...

فيتصدى له الأمير الهنديّ ، وسرعان ما ينشَب بينهما عراك
يلتجمان فيه ويختلطان ، فلا تدرى في ذوبعة المعركة الدائرة : أيهما
الأمير وأيها الشيطان ؟ ...

ولا يلبث الشجار أن يتجلى عن فوز ذلك القزم الهنديّ ، بعد
أن تورمت عيناه ، وتمزقت سراويله ، وهو يجر المارد ، بمسكاً
بقدميه ، على حين يتزايل شبحهما عن النظارة بتزايل الأضواء ،
وترأخي الأستار ، وسط عاصفة هَوَّجاء من التصفيق والهتاف ...

وتبع ذلك الدور عرض رواية سينمائية على الستارة البيضاء ،
لم تستطع على طلائوتها أن تنسينى مباحج تلك المعانيات التي راعنا
بها القزم الهندي الساحر ...

وفيا أنا أبارح داره السينما، شهدت لمة من الناس قد تجمروا
عند الباب ، وقد انبعث منهم التصفيق والضجيج ، وإذا بعيني تلحان
القزم الهندي في لبوسه الحريري اللامع ، وعمامته الطولى ، ولحيته
الدهقاقة المعصورة . يخترم الصفوف ، تنهذى خطاه ، وهو يوزع
بسماته الرفيعة بين الجوع ، ويبعث تحيانه إشارات رشيقة يتجلى
فيها الظرف والكياسة ...

رَنَوْتُ إليه أتأمله ، وانفق أن التفتُ نظرتي بنظرته ، فسرعان
ما لمحتُ في عينه اختلاجة طارئة ، وأحسستُ بدافع يحدوني أن
أقبل عليه أحياه ... ولكنى شعرت به يشيع عني بوجهه ، ويتابع
سيره . ثم ارتقى سيارته الفخمة ، وغاب بها بين أطباق الزحام ...
وبينما كنت في طريقى إلى البيت ، عاودتني الدهشة والعجب
من ذلك التشابه الناطق بين الأمير الهندي وبين صديقى القديم
« أبى على الأريست » ، فتملكتنى صورته ، واستبدتْ بى
ذكريات أيامه ...

وهل أنسى آخرَ موقف له على مسرحه الخشبى الوضع الذى

— ٢٣١ —

شَيْدِه في «سيدنا الحسين» بما وَرَّثَه من مال أبيه، وكيف كان
يمثل دوره في مأساة عنيقة انتهت بأن شيعة الجمهور بألوان من
القذائف وضروب من صياح الاستنكار وصفير الاستهجان؟ ...
وكانت آخر لقية رأيت فيها، وهو موثد فراش المرض في
حجرته المهمللة التي يفصح كل ما فيها عن الإفلاس والاندحار...
ما أنسَ لا أنسَ وجهه الممتقع، وقد انتابته غيبوبة مرضه
الآخر، فاندفع في تخليطه يهذى بمشروعه الجسمي: إنشاء مؤسسة
للتمثيل على أحسن طراز! ...

* * *

وفي الغداة، وأنا أتناول فطورى، صلصل «التليفون»، وإذا
المتكلم كاتب سر الأمير الهندي «أوتا كاما، يُنهي إلى رغبة
الأمير في اقائى الآنَ بفندق «شبرد، ...
وكانت مفاجأة غريبة أسلنتنى إلى تفكير حائر لم ينته بى إلى
قرار ...

ماخطبُ تلك الدعوة؟

وماذا يبتغى الأمير منى؟

وكيف عرفتى؟

وكنتُ كلما تقاسمتنى هذه الأفكار، ازددتُ شغفاً وتطلعا

إلى هذا اللقاء ، وجعلت أتعجل الخطأ ، وأنتهب الطريق ، حتى
إذا بلغتُ بابَ المُسَدَّق ، أَلْفَيْتُ كَاتِبَ سِرِّ الْأَمِيرِ يَرْتَقِبُ
مَحْضَرِي ، فَتَقْدُمْنِي مِنْ فُورِهِ إِلَى مَشْوَى الْأَمِيرِ ...

وما كدتُ أخطو في الحجرة حتى رأيتُ « أوتاكاما » ينهض
دَفْعَةً وَاحِدَةً لِمُسْتَقْبَالِي ، وَقَدْ بَسَطَ لِي ذِرَاعِيهِ ، وَهُوَ يَصِيحُ :
أَهْلًا وَسَهْلًا ...

فوقفتُ مشدوهاً أَحَدَقْتُ فِيهِ ، وَكَأَنِّي قُبَالَةَ شَبَّاحٍ قَدْ انْشَقَّتْ
عَنْهُ غِيَاهِبُ الْمَجْهُولِ الْبَعِيدِ . وَهَمِهْتُ : مَنْ أَرَى ؟
فَمَلَا صَوْتَهُ يَقُولُهُ : صَدِيقُكَ الْقَدِيمُ ، أَلَا تَعْرِفُنِي ؟
- « أَبُو عَلِيٍّ » ، ١٩

فَأَقْبَلَ عَلَيَّ يَعْتَنِّي ، وَيَشُدُّ عَلَيَّ يَدِي ، وَرَأَيْتَنِي أَقُولُ لَهُ :
لَقَدْ شَهِدْتُكَ الْبَارِحَةَ ...

- وَأَنَا أَيْضًا تَبَيَّنْتُكَ بَيْنَ النَّاسِ ...

وَمَالَ بَوَاجِهِ قَلِيلًا ، وَهُوَ يَدْعُكَ يَدِيهِ . ثُمَّ قَالَ :

الْمَوْقِفُ لَمْ يَكُنْ مَوَاتِيًا لِلْمَلَا قَاتِكَ !

ثُمَّ دَعَانِي إِلَى الْجُلُوسِ ، وَاتَّجِهَ إِلَى مَنْضَدَةِ قَرِيْبَةٍ ، فَتَنَاولَ مِنْهَا قَدَحًا
قَدَمَهُ إِلَيَّ قَائِلًا :

تَذُوقْ هَذَا الشَّرَابَ الْهِنْدِي ... لَيْسَ فِيهِ عَلَيْكَ ضَرِيرٌ ...

- ٢٢٣ -

فأمسكتُ بالقدرح ، وقد انسرح بصري ، وأنا ساهم أغنم :
ولكن .. كيف كان ذلك ؟

فأطلق الصديق ضحكة مجلجلة ، وقال : لعلاك تعجبُ من لقائى
الآن ، بعد أن غيبتنى أطباق الثرى ... بُحِجِي العظام وهى رَمِيمٌ !
ثم أخذ يدي يصفطها ، واكتسى وجهه مسحة الجذ والتفكير .
وقال :

لقد متّ حقاً ، مات صديقك « أبو على » الذى كنت تعرف
من أمره كل شيء ... ولقد بُعِثْتُ اليومَ بعثاً جديداً ... تلك حياة
طويتها ، وهذه حياة أخرى أحيّاها ثانياً ...
ومدّ يده إلى علبسة اللفائف السوداء الفاخرة ، وأعطاني
واحدة منها . وأخذ لنفسه أخرى ، وأشعل اللفافتين بقداحة
مُذْهَبَةٍ ثمينة ...

واسترخى فى ضججته ينفُثُ ضباب الأنفاس ، وهو
يقول :

ما أجل أن يستمرى الإنسان أطايبَ الحياة ...
وشاع الصمت بيننا فترة وأنا أتفرس فيه ؛ وهو يستمتع
باجتذاب الأنفاس من لفاقته ، وسمعه يقول وهو تائه الفكر ،
شارد النظرات :

— ٢٣٤ —

كان بودى أن ألقى بقية الرفاق ، وأن أزور معاهد
الذكريات ... ولكننى أريد أن أستبقى لنفسى حياتى الجديدة ،
فلا أشوب صفوها بنش الماضى . ذلك الذى كابدتُ من أيامه
ما كابدتُ !

- ألسنت راضيا عن حياتك الأولى ؟ ... لقد كنت فيها مجاهداً
وكانت لك مثل عالية تناضل فى سبيل تحقيقها ...
- لم يكن ذلك كله إلا عبثاً وأضغاث أحلام . لنَدع الميت
ينطوى عليه قبره ! .

فجرعتُ من القدح جرعة أتذوقها على مهل ، وقلت خافض
الصوت : حقاً إنه لسر عجيب !
فتطلق وجهه ، وقال :

د ما زلت أنت كعهدى بك ، طلاعاً إلى التعرف ، شديد
الفضول ...

لن أبوح بمكنون أمرى لغيرك ، فكن له صائناً ...
إن هى إلا أيام قلائل أقضيها هنا فى وطنى الأول ، ثم أواصل
التطواف فى مختلف الأصقاع ...
لقد شهدتنى آخر مرة وأنا على فراش الاحتضار ، أعالج

سَكَرَاتِ الموت ... وما كان لك أن تعرف من أمرى بعد ذلك.
أى شىء !

لا تنتظر منى أن أجاهرك بالكثير بما غاب عنك ...
بحسبك أن تعلم أنى بعد أن ذاع منعاى بوقت لا أدرى أقصيراً
كان أم غير قصير ، شعرتُ بمبعثى ثانية فى مدينة « الأقصر » ...
وكنْتُ لا أكاد أجدُ لى مأوى ، وتدهورتُ فى الحال أسوأ
التدهور ، أمسِك الرمح بالكسرة بعد لآى ، وأمتن أرذل المهن
استعطافاً للقوت ...

وكنْتُ ساعةً على رصيف النيل ، أتملى مغربَ الشمس ،
وأشباحُ السفن تنساب على متن الماء غادية رائحة ، تكسوها
صبغة الشفق ، وكأنها بما تعكسه من ظلال قائمة تحمل بين طياتها
طلائع الليل ...

وبينما أنا مستغرق فى تأملاتى ، أعرض حياتى الماضية ،
وأوازن بينها وبين أيامى الحاضرة ، إذ شعرتُ بيد تلاطف كتنى ،
وإذا أنا أمام رجل أجنبى مهندم ، حليق اللحية ، ناصع البشرة ،
يرتسم على وجهه وسمُ السنين ...

فقال لى فى لهجة مصرية مألوفة : هل لك أن تكسب الليلة

« ريالاً » ؟

فقلت على الفور وسـ مار الجوع يلهمنى بكل سرور ...
نظير ماذا ؟

فأخذ ييدى ، وسار معى على الرصيف ، وهو يقول : الأمرهين
لا يكلفك شيئاً ... ليس عليك إلا أن ترتدى الجلة الرسمية السوداء
والقبة العالية ، وتخطى على المسرح بضع دقائق !
فثارت بى ذكريات خالية ، ذكريات المسرح ، ومواقفى
على منصته ...

أية مفاجأة هذه التى تدعونى أن أصل ما إنقطع من حياتى
الفنية ؟

فوقفت أشرع نظراتى إلى الرجل ، وقلت :
ليس المسرح غريباً على ... تستطيع أن تركزنى إلى ... وسترى
من أمرى عجباً ... اشرح لى ما ينبغى أن أضطلع به من مواقف
البطولة ...

فأخذ الرجل ييدى ثانية يتابع بى السير ، وانطلق يشرح
الدور الذى اختارنى له ، فتبينت أنه يريدنى لموقف هازى. أغدو
به أخوكة للناظرين ...

فأنفت ذلك كل الالفة ، واستيقظت كبرياتى تحمىنى أن
أذعن لهذه السخرية التى تجافى الكرامة ...

-- ٢٣٧ --

وباطلا حاول الرجل إقناعي ، وتهوين الأمر عليّ ، حتى لقد
اضطريتُ أن أردّه عني ، فأغلظتُ له في القول ...
وكلما أصررت ، ازداد بي إلخافاً ، وهو ينظر إليّ في ملاطفة ،
ويبتسم لي في رفق ...

وما زال بي ، حتى قلت له في لهجة حاسمة :
هيهات أن أظهر على المسرح إلا في الموقف الذي هياتني له
العناية الإلهية ... لقد خلقتُ لأداء رسالة « المأساة » ،
فألفيته يتأملني مايباً ، وابتسامته تلتصع على عجاها ، وقال :
ليست هـ... هذه أول ساعه رأيتك فيها ، فإنني رقبتيك أياماً
موصولة ، وفطنت إلى النوع الذي تجسده ، ويقيني أن العناية
الإلهية إنما هيأتك أخيراً « المأساة » ... إلى رجل قد بلّوتُ
المسرح ، وأبليتني التجاريب ، فلتطعن إلى اختياري ، وأؤكد لك
أنك لن تسندم على مطاوعتي !

فصحت حمسيّ الصوت ، راجف الأوصال :
« المأساة » ، وإلا فلا !

فنظر إليّ الرجل نظرة إشفاق وقال لي :
شأنك وما تريد يا صاحبي ، وهاك عنواني . . إن شئت
أن تراجع نفسك ، وترضى ما عرضته عليك ، فأتنا في انتظارك ،

أرحّب بك ...

ودفع إلى بطاقته ، وانصرف عني ...

فوقفت أشيع شبحه يطويه الظلام ...

ثم أدت بصري إلى النيل ، أتبين في غير وضوح فلاع

السفن تبتدئ الأفق ؛ كأنها أشباح خيفة توشك أن تهجم على ...

وتناهت إلى سمعي أصوات المجاديف ، وهى تفرع الماء

قرعها المتواتر ، فتبعث في نفسى الوحشة والاكتئاب ..

ووجدتني أتجى عن الشاطئ ، ويداى متهودتان خلف

ظهري ، وأنا خافض الرأس ، يتوزعنى خليط الهواجس والأفكار ..

وأحسست بين جنبي معركة الجوع تدور رحاها في صخب

وعنف ...

مهما يكن من أمر ، فلن أذيلَ فنى ، ولن أشتري بتلى العالية

ما يُعرض على من قُوت وضيع ، ومجد رخيص ا

ولكن ... لتدبر الأمر على هيئة ورسل . .

ذلك الرجل الأجنبي يريدنى على أن أظهر في موقف

فكاهى ...

أليست الفكاهة مُعترفاً بها في التمثيل ؟

أليس للمسرح أبطال الملهة ، ؟

أليسوا هم وأبطال « المأساة » ، على قدم المساواة ؟
وتعالى من أحشائي صوت الغوث ...
وطوف به خيلتي أبطال الأفاكيه والمهازل في عالم الفن ، يعرضون
أدوارهم أمام عيني ...
فرايتني أستوقف شبح « شارلي شابلن » ، في مواقفه المشهورات ،
لم يدع حركة إلا قام بها ، ولا وسيلة إلا ابتناها ، انتزاعاً
للفضحك ، وبعثاً للبهجة والإيناس .
على أية حال لو قد درى أن أتدلى بنفسى إلى مواقف هؤلاء
الأبطال المضحكين ، فلن يكون ذلك إلا فى مثل هذا البلد الذى
أنا فيه ، غريب لا يعرفنى أحد ...
وأخرجت بطاقة الرجل ، أقلب فيها النظر ، على سبيل التعرف ،
فشعرت بخطاى تطوى الطريق إليه ...
وكان نجاحى فى تلك الليلة على المسرح تقريراً لمصيرى !
لقد تراميت فى خضم حياتى الجديدة ، بدافع لا طاقة لى برده ،
وتوالت الأيام ، أوصل الرحلات والأسفار ، يسلمنى بلد إلى بلد ،
وتجمى يزداد من سطوع ، والنعمى تُقبل على بغير حساب ، وأنا
أقوم بدورى الفكاهى الجديد ، منتحلاً شخصية أمير هندى ...
لقد بدأت الغشاوة تنقشع رويداً عن عيني ، فأبصرت نفسى

على حقيقتها ، وتوضحت لي عبقرتي في ميدانها ، وعلمت أن مهمتي
الاضيلة على المسرح هي تلك المهمة التي رأيتموها أنت منى البارحة ...
أن أرقص ، وأن أدور ، وأن أوالى هذه الأفانين من المعاكسات
والمشاحنات ...

واستبقاني صديق ، أبو علي ، - أوبالاحرى : أمير الفكاهة
الهندي - ساعة ، فنعيننا فيها بأطاييب الأحاديث ، وتذاكرنا
سوالف الأحداث ...

وتركتهم موعداً إياه أن نلتقي في القريب ، فصدفت بي عن
المبادرة إلى إنجاز الوعد شواغل لم أستطع لها دفعا ...

وصبح يوم قرأت في صحيفة سيارة أن الأمير الهندي «أونا كاما»
بارح ، القاهرة ، على متن إحدى الطائرات ، تلبية لدعوة مفاجئة
تلقتها من إحدى الدوائر الفنية في الخارج ...
وعلقت الصحيفة على هذا النبأ تعليقاً تناولات فيه حياة الأمير
الهندي ، فصورتها صورة مرقشة محشوة بالكاذب ...
وختمت تعليقها مطبوعة في الإشادة بفن الأمير ، سخية له
بأطيب الأمانى ...

فوضعتُ الصحيفة جانباً ، تتخايل ابتسامة شاحبة على شفتي ...

ثم وجدت يدي تدلف إلى أحد أدراج مكتبي ، عابثة بما يضم من أوراق ، وكان من بينها مجلة قديمة العهد ، ورأيتي أقلب صفحاتها ، فوقعت عيني على نبذة تعلق بها المجلة على الرواية التي ظهر فيها « أبو علي الأرتيست » يوم بنى مسرحه الخشبي الوضيع في حيّ « الحسين » ...

وجعلتُ أقرأ تلك النبذة ، فها هي ما فيها من نقد مرّ . وتجرّج بالغ القسوة ، وسخرية شديدة اللذع ، وألقاب ذميمة في غير رحمة ... وكان ختام تعليق المجلة نداء حارّاً إلى رجال الأمن أن يسوقوا ذلك المأفون إلى مستشفى المجانين ! ونهضتُ أشعل لفاقة ، وقصدت إلى النافذة ، أسيمُ النظرَ في الأفق ...

ما أكثر أمثال « أبي علي » ، في الناس !
ما أحوجهم إلى أن يموتوا كما مات ...
وما أسعدهم بأن يُبعثوا كما بُعث !

جَرَّبُ خَاطِفَةَ

١ - برقية إلى الأنسة ع. ك. بجاردن ستي أول سبتمبر :

« أحبك ... »

هي كلمة واحدة لا أقول غيرها، جَرَّبُ يا على أصول المنطق الحديث وملابس العصر الحاضر .

أحبك ...

كلمة حوت عناصر السرعة والتركيز .

نعم ، أحبك ، ولا تعيننا التفاصيل الآن !

م . ن ،

٢ - برقية إلى الأنسة ع. ك. بجاردن ستي بتاريخ ٢ سبتمبر :

« إن حب سنة ١٩٤٣ حبٌ يهبط على القاب كما تهبط القنبلة »

من الطائرة قاذفة المفرقات ، وهذا هو شأن حب .

رأيتك في جهة ما ، وفي ساعة من ساعات الحياة . ومن ثمَّ

تكلم القضاء ، فأصدرَ حكمه الذي لا يُردّ .

م . ن ،

أهواك يا معبودتي !

— ٢٤٤ —

٣ - برقية إلى الأنسة ع. ك. بجاردن ستي بتاريخ ٣ سبتمبر :
« إني أعرفك ، ولكن أنت لا تعرفيني . ماذا يُهم ١٢
وقد أحبيتك ، وستحييني ...
لأنها إرادتي ، وهي أيضاً إرادتك . وإرادتنا كليهما إرادة القدر
م . ن »

٤ - برقية إلى الأنسة ع. ك. بجاردن ستي بتاريخ ٤ سبتمبر :
« توقعي غداً أمراً خطيراً .
مفاجأةٌ ليس بعدها مفاجأة ...
لا تفاصيلَ اليومَ .
أعبدُكِ يا غرامى الدائمَ !
م . ن »

وفي اليوم التالي وقف أمام باب الشقة « بجاردن ستي » شاب
مهتَمٌ معطرٌ ، رشق وردةً حمراءَ في عُروّة سُترته ، وحمل
طاقةً من الأزهار الفوّاحة معدّةً لفتن القلوب .
وفتح الباب ... وظهرتْ على عتبة غادة رائعةُ الحسن في
منامةٍ حريريةٍ هفافة ، فألقتْ على الشاب نظرةً فاحصةً من طرّفها

— ٢٤٥ —

الكحيل ذى الأهداب المتراسة الطويلة ، ثم قالت :
حضرتك بلا ريب م . ن صاحب البرقيات .
— أنا نفسى ا... —

— تريد طبعاً أن تعلم رذى على هذه البرقيات وفق منطلقك
الحديث وملايسات العصر الحاضر ، حيث السرعة والتركيز في
الأقوال والأفعال من أزم الواجبات ا... —
— لا فُضْ فوقك .
— ها هو ذا رذى ... —

وارتفعت يدُ الحسنا ، وسرعان ما هبطت على صدغ الفقى ا...
وإذا بفرقة ترن متعالية ، فتجاوبُ بها الحيطان ، تبعتها
في الحال دوى باب يُقفل ا... —

وكان م . ن . حاد الذكاء ، على اطلاع واسع بخطط الحروب
الحديثة ، فعلم أن الهجوم الخاطف إذا لم يصادفه انتصار حاسم
انقلب إلى هزيمة فاصلة تتطلب التقهقر العاجل في انتظام .
فأطلق ساقيه للريح - كما يقولون - وجعل يقفز على الدرج
مثنى وثلاث ورباع ا... —

فهرس

صفحة	
٣	محمد أفندى صل على النبي
٨٩	زهرة المرقص
١١١	إحسان لله
١٣٣	زوج وضرتان
١٦١	ثلاثى عمر الحيام
١٨٥	أبنة إيزيس
١٩٧	عندما تضحك الأقدار
٢١٣	موعد
٢٢٧	سر الأمير الهندى
٢٤٣	حرب خاطفة

أحدث مؤلفات «محمود تيمور»

- | | |
|-----------------------------|------------------------------|
| ٢ — النبي الإنسان | ١ — بالعربية : |
| ٣ — شفاء الروح | ١ — مجموعات قصصية : |
| ٤ — عطر ودخان | |
| ٥ — رحلات : | ١ — كل عام وأنتم بخير |
| | ٢ — مكتوب على الجبين |
| ١ — أبو الهول يطير | ٣ — شفاء غليظة |
| ٢ — شمس وليل | ٤ — شباب وغانيات |
| ٥ — قصص تمثيلية : | ٥ — إسمان لله |
| | ٦ — فرعون الصغير |
| ١ — صقر قرش | ٧ — أبو الثوارب |
| ٢ — سهاد أو اللجن الثالثة | ٨ — أبو على الفنان |
| ٣ — اللقطة وحلة شاي | ٩ — زامر الحبي |
| ٤ — الخبأ رقم ١٣ | ١٠ — قلب غائبة |
| ٥ — المزفون | ١١ — ناثرون |
| ٦ — فداء | ١٢ — دنيا جديدة |
| ٧ — عوالي | ١٣ — نبوت الحقير |
| ٨ — أبوشوشة والوكب | ١٤ — تمرحنا عجب |
| ٩ — قتابل | ب — قصص مطولة : |
| ١٠ — حواء الخالدة | ١ — كليوباترة في خان الخليلي |
| ١١ — اليوم خير | ٢ — سلوى في مهب الريح |
| ١٢ — ابن جلا | ٣ — نداء المجهول |
| ١٣ — أشطر من إبليس | ٤ — شمروخ |
| ١٤ — كذب في كذب | ٥ — حلو ومر ، تحت الطبع |
| و — دراسات لغوية وأدبية : | ح — صور وخواطر : |
| | ١ — ملاحم وغضون |
| ١ — مشكلات اللغة العربية | |
| ٢ — دراسات في القصة والمسرح | |

ب — باورنجيزية :

Tales from Egyptian Life قصص من صميم الحياة المصرية

ج — بالفرنسية :

1. Le Courtier de la Mort عزرائيل القرية
2. La Belle Aux Lèvres Charnues شفاء غليظة
3. La Fille de Diable بنت الشيطان
4. Bonne Fête كل عام وأتم بخير
5. La Fleur du Cabaret زهرة الرقص
6. L'Amour par delà l'inconnu نداء المجهول
7. Les Amour de Semi غراميات سامي
8. Le Rieve de Samara حلم سمارا
9. La Vie des Fantomes حياة الأشباح

د — باورلمانية :

- ١ — مجموعة قصص لقهرها للمكتشف الأثني الدكتور « ويدمار »
- ٢ — مجموعة قصص لقهرها الأديب « كالر »

هـ — بالروسية :

ثلاثة مجلدات ضخام لقهرتها المستعرة الروسية : المصدرة « ركلتوم عودة فاسيلفا »
 أستاذة الأدب العربي بجامعة موسكو .
 ولدت في مجموعات بالقوقازية والعبرية والإيطالية والإسبانية والمجرية واليوغسلافية

ملزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب وطبعها بالجمايزك ٣٧٧
٤٦ ميدان الأوبرا ٩٢٠٨٦٨